الجانب الصوفي في تفسير روح المعاني

أكرم علي حمدان

Abstract

This article is an attempt to assess the contribution of al-ʿAlūsī to the science of Koranic exegesis. His work is at once erudite and extraordinary original, all the more for his rare combination of a traditionalist, *salafi* religious orientation with a spiritual, *mystic* temperament of the highest order. In fact, his *tafsīr*, as this article shows, abounds with the views, dicta and mystic states of the Sufis. At first sight, then, al-ʿAlūsī appears to be, in both academic and spiritual terms, a paradoxical character. Hence much of the article is devoted to probing this apparent contradiction, trying to disentangle the complex strands of al-ʿAlūsī's thought and the influences that have contributed to shaping his religious and intellectual outlook. The comments al-ʿAlūsī makes on Sufis and his references to them are closely examined with a view to determine his own stance

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

on Islamic mysticism. The article, written in a manner that draws on al-ʿAlqus³'s own stylistic devices, aims among other things to reproduce the climate of opinion that prevailed at the time as well as the character and personality of al-ʿAlqus³ himself. The analysis gives special attention to Ibn 'Arab³, as al-ʿAlqus³ seems to have found in him, in many respects, a kindred spirit. Al-ʿAlqus³ is, however, not just another bewitched admirer of Ibn 'Arab³'s. For despite the Andalusian master's dazzling command of Arabic and his verbal artistry, al-ʿAlqus³'s perspicacity and his uncommon touch with common sense never depart him. He has both the courage and wit to criticize Ibn 'Arab³ or to fault him where he finds him errant or swept away, by a heavy dose of mystic euphoria, from the path of *shar-³'a* or reason. His criticisms are not grounded in malice or spurred by ostentation, and he quotes chapter and verse in the course of his argument. While appealing to common sense or reason, al-ʿAlqus³ never forgets the spirit and that 'le coeur', as Pascal put it, 'a ses raisons que la raison ne connaît point.'

ملخص البحث

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

تبحث هذه الدراسة في واحد من الجوانب الكثيرة التي اشتمل عليها تفسير روح المعاني للآلوسي، وهو الجانب الصوفي، في محاولة للكشف عما وقع في هذا التفسير الضخم مما ظاهره التناقض والتدافع، إذ جمع فيه العلامة بين النقيضين: السلفية والتصوف، وشحنه بأقوال الصوفية وآرائهم، شعراً ونثراً، ولا سيما شيخهم الأكبر وكبريتهم الأحمر ابن عربي الذي أكثر الآلوسي من الرجوع إليه في تفسيره، مع أن رجال المدرسة السلفية لم يروا من سبيل للالتقاء معه فكراً واعتقاداً، بل رموه بالزندقة والإلحاد. ولذلك فسيرى القارئ الكريم أن موقف الآلوسي من ابن عربي كان له الحظ الأوفر والنصيب الأكبر من صفحات هذه الدراسة، وأننا آثرنا ألا نقحم رأينا الشخصي في كثير مما لا يضيف بيان الرأي فيه لقيمة البحث، وإنما أردنا أن نعرض ما اشتمل عليه تفسير الآلوسي من هذا الجانب، من غير كبير تعقيب منا، لأن هذا هو مبتغانا من الدراسة، ولتكن حصافة القارئ وفطنته عوناً لنا على ما قصدنا إليه، والله من وراء القصد.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

مقدمة[1]

الحمد لله الذي علم بالقلم، وصلى الله على خير من مشت به على الأرض قدم، وعلى آله وأصحابه وسلّم. أما بعد:

فإن صلتي بالعلامة الآلوسي ترجع إلى سالفٍ من العهد قديم، يوم كنت أتلمس طريقي نحو فهم آي الكتاب الحكيم، باستكشاف سره المكتوم، وارتشاف رحيقه المختوم. وقد كنت إلى تفسيره أَمْيَلَ مني إلى غيرِه، نظراً لفخامة مؤلفه وجلالة قدرِه، ثم لِما اشتمل عليه من غرائبِ المسائل اللغوية، وما حُشي به من بدائع النكتِ النحوية، إذ كانت هذه غايةَ طَلِبَتي إذ ذاك، يومَ كان فهمي يَقْصُر عن فُهوم سائر السُّلاك، فلم أُعِرْ علومه الأخرى ما تستحقُّ من النظر، ولويتُ عنها عنان الفكر على اشتمالها كثيراً من العبر، واحتوائها بحقٍ على ديوان المبتدأ والخبر.

ولم أزل طامعاً بنيل ما في تفسيره من البدائع، إلى أن جمعتني به بفضل الله المجامع، فجددتُ به على طول الفترة عهداً، وطفِقتُ أنظر في جواهره أخذاً وردّاً، بعين غيرِ تلك العين، فقد زال بحمد الله عنها بعضُ الغَين. وما هي إلا أن طالعتُ ما رُقِم في خطبةِ الكتاب، حتى رأيتُني كالمريدِ بين يدي وتدٍ أو قطبٍ من الأقطاب، إذ كلامُ السادةِ الصوفيةِ في كل صحيفةٍ من صحائفِهِ حاضرٌ باد، وأشعارُهم فيه يُبدأ بها في كل حينٍ ويُعاد، ناهيك بما يُلِمُّ به من عجيب أحوالهم، وما يلوذ به من ذكر ذوقهم ووجدانهم. فذكرتُ ما كنت أعلمُ قبلُ من نصرته لدعوة ابن عبد الوهاب، ضرغامِ الأجمةِ السلفية وأسدِها الجوّاب، الذي لم يدعْ لنقض التصوف الفلسفي طريقاً إلا وَلَجَه، ولا ترك باباً يُفضي إليه إلا أرْتَجَه، فقدِمتُ إلى بعض تراجمه أتبينُ فيها عجيبَ أمرِه، وأعرفُ منها ما خفي

1 سلكنا في هذه المقدمة طريقة السجع نسجاً على منوال الآلوسي في أكثر كتبه، ولا سيما غرائب الاغتراب، وذلك لوضع القارئ في سياق الموضوع والانتقال به إلى عصر المؤلف وطريقته في التأليف.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

من سرِّهِ وجهرِه، فألفيتُها تؤكد ذلك الأمرَ تأكيداً، وتردّدُ القول فيه ترديداً، فوقعتُ واللهِ في حيرةٍ من أمري، استحوذتْ لحينٍ من الدهر على عقلي وفكري، ودفعتني للمضيّ مع شيخِ آلوسَ في كتابِه، بعد أن طال بي الوقوفُ على أعتابِه، فما عتّمتُ أن رأيتُ عنده من العجب العجاب، ما شحذ همتي وفتح أمامي مُوصَدَ الأبواب، ولم أزل متهيباً من خوض لجة ذلك البحر المتلاطم الأمواج، خشية الوقوع بين أنياب الغلط وبراثن الإحراج، ناهيك بالحيرة في التعليل، وخوف الانقطاع في وسط السبيل، حتى قضى الله بأمره أن أشرع فيه، بعد أن استوفيتُ مقاصده واستبانت لي مراميه، فشمرتُ له عن ساعد الجد تشميراً، بعد أن خمّرتُ في ذهنيَ الفكرةَ تخميراً، ثم رحتُ أُنَقِّر عن هذا التناقض المريب، وأنظر في ذلك الجمع الغريب العجيب، فكان مما ترى من هذا البحث المتواضع، ما عسى أن ينتفع به القارئ المطالع، وقد قسّمته إلى مقدمة وثلاثة مباحثَ وخاتِمة، سائلاً المولى الثباتَ على الإيمان وحُسْنَ الخاتمة.

الفصل الأول: ترجمة الآلوسي وعقيدته

ترجمته ومكانته العلمية[2]

2 راجع ترجمته الوافية في غرائب الاغتراب ص 5 وما بعدها، والأعلام للزركلي 176/7، ومعجم المؤلفين 175/12–176. وقد خصه الدكتور محمد رجب البيومي بترجمة ضافية في كتابه: النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين، فليرجع إليه. وانظر أيضاً التفسير والمفسرون للذهبي 352/1 وما بعدها.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ما كنت أحب أن أُجريَ تحت هذا العنوان قلماً، ولا أن أخط فيه سطراً، من كثرة ما تناقلته عن الآلوسي كتب التاريخ والتراجم والأعلام، بلْهَ ما دُبِّجت به صحائف كتبه، أو ناءت به كتب وبحوث ومقالات وضعت حوله، من أنه، رحمه الله، كان "آيةً من آيات الله العظام، ونادرةً من نوادر الأيام"، صاحبَ همة عالية ونفس جسور في طلب العلم والانقطاع إليه والشغف به، إلى أن غدا فريد عصره ووحيد دهره، حتى إن أحد الباحثين[3] استدل بوجوده في القرن التاسع عشر على أن النهضة العلمية في العراق ترجع إلى ذلك القرن، لا إلى القرن العشرين، كما ادعى غيره من الباحثين، ذلك أن البيئة العلمية في ذلك العصر، "مهما قيل عنها، كانت تسمح بوجود عملاق كبير، أدى دوره الفكري أحسن أداء"[4]، بل إنه يذهب إلى أن "الاستشهاد بالإمام الآلوسي في هذا المجال كاف لمنع اللجاج الصاخب حول ابتداء النهضة العلمية بوادي الرافدين"[5].

وأبو الثناء هو شهاب الدين، محمود بن عبد الله الحسيني الآلوسي، نسبة إلى آلوس، كما حققها الزركلي في أعلامه[6]. ينتهي نسبه إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، كما ذكر هو في تفسيره، إذ قال في كلامه على النسب المعنوي والنسب الصوري: "وأنا أحمد الله تعالى كما هو أهله على أن جعلني من الفائزين بالنسبين حيث وهب لي الإيمان، وجعلني من ذرية سيد الكونين صلى الله تعالى عليه وسلم، فها أنا من جهة أمِّ أبي من ذرية الحسن، ومن جهة أبي من ولد الحسين رضي الله عنهما:

3 هومحمد رجب البيومي في كتابه: النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين.

4 النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين، 33/2

5 السابق

6 الأعلام 176/7

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

نَسَبٌ كأنّ عليه من شَمس الضُّحى نورًا ومن فَلَقِ الصباح عمودا"[7]

وُلد ببغداد في منتصف شعبان سنة 1217هـ الموافقة لعام 1802م لأسرة من الأسر العلمية العريقة، ودرس على عدد كبير من علماء العراق، وأخذ عنه خلق كثيرون. أما آثاره فقد جاوزت العشرين، عدا فتاواه وتَرَسُّلاته وأشعاره، وتميزت جميعها "بالإحاطة والعمق واستقلال الفكر وحريته، مع روعة البيان وحسن الافتنان في صياغة معانيه وأفكاره"[8]، وبحسبك تفسيره روح المعاني الذي امتدحه الشعراء وأثنى عليه العلماء الكبراء. تُوُفِّيَ، رحمه الله، ببغداد إثرَ علة اعتلها وهو في طريق عودته من عاصمة الخلافة، وكان ذلك في شهر ذي القعدة سنة 1270هـ، عفا الله عنه وطيب ثراه وبرّد مضجعه.

الآلوسي سلفياً

غير أني لما أردت أن أعالج في هذا البحث جانبًا في تفسير هذا العلامة النحرير آخر، لم أجد سِفرًا مما سمحت الظروف بالاطلاع عليه والنظر فيه قد فصّل القول فيه[9]، مما يكاد يكون ظاهره نقيضًا لما استفاض عن صاحبه وعرفه الناس به، مع أنه واضح وضوح الشمس في رائعة النهار، أحببت ألا يدلف القارئ إلى ذلك قبل أن أنقل له ما يفيد سلامة اعتقاد الرجل، وصفاء طويته،

---

7 روح المعاني 150/10

8 محمود شكري الآلوسي وآثاره اللغوية 33.

9 ذكر الذهبي في التفسير والمفسرون نتفاً من هذا الجانب، وإن كان تحدث عن التفسير الإشاري في روح المعاني، وليس عن الجانب الصوفي، كما أشار لهذا الجانب إشارات سريعة مقتضبة عبد الله البخاري في كتابه: جهود أبي الثناء الألوسي في الرد على الرافضة، ووقفت للأستاذ منير شفيق على قوله: "أسهم الشيخ أبو الثناء الألوسي وحفيده الشيخ محمود شكرى الألوسي صاحب تفسير "روح المعاني" إسهاماً كبيراً في الرد على فلسفة "الحلول والاتحاد – وحدة الوجود" وتبيان مخالفتها للإسلام. انظر: http://www.balagh.com/mosoa/ejtma/ro0ort0x.htm

ولا يخفى ما وقع فيه من خلط في نسبة الكتاب، وفي مقالته ذكر كلمة الأستاذ أنور الجندي من أن الشيخ أبا الثناء الألوسي عمل أيضاً على التقريب بين الفقهاء والصوفية.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وحسن سريرته، فقد عُرف بأنه "سلفي الاعتقاد، شافعي المذهب"[10]، إلى ميل لتقليد الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان في كثير من الفروع. كما شاع عنه "مناصرته لدعوة التوحيد الخالص التي قام بِها الإمام محمد بن عبد الوهاب"[11]، وقد أكد الذهبي سلفية الآلوسي لدى كلامه على موقفه من المخالفين لأهل السنة، إذ قال: "والآلوسي سلفي المذهب، سني العقيدة"[12].

ونقف على ما يؤكد هذا في ما جاء في وصيته التي كتبها لأبنائه قبل شهر ونصف من وفاته، رحمه الله، من تقريظ عقيدة السلف، والدعوة إلى التزامها، وذلك في قوله: "يا بَنيّ عليكم في باب العقائد بعقيدة السلف، فإنّها أسلم بل أنصف، يعلم أيضاً أنّها أعلم وأحكم، لأنّها أبعد عن القول على الله عز وجل بما لا يعلم، وأنّى لعناكب الأفهامِ والأوهام أن تعرج بلعابِها إلى حمى ذي الجلال والإكرام، هيهات هيهات! ذلك حمى منيع جليل، حتى عن جبريل وإسرافيل"[13].

ولا غرو، فالمتصفح لتفسيره، روح المعاني، يراه يفزع إلى مذهب السلف كلما حزبه أمر أو غبي عليه وجه الحق فيه، كموقفه من بحث علوم النجوم والمنجمين الذي يرى أنه "من أهم المباحث" إذ إنه "لم يزل معترك العلماء والفلاسفة والحكماء"، ذلك أنه ينتهي فيه إلى التسليم بما عليه السلف فيقول: "ولا أقول ببساطة الأفلاك ولا ببساطة الكواكب، ولا بانحصارها فيما يشاهد ببصر أو رصد، ولا بذكورة بعض وأنوثة آخر، إلى كثير مما يزعمه المنجمون، وأقول: إن الله تعالى

10 التفسير والمفسرون 353/1

11 السابق 41/2

12 السابق 356/1

13 جهود أبي الثناء الألوسي في الرد على الرافضة، ص 94، عن: إنباء الأبناء بأطيب الأنباء ص 18.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أودع في بعضها تأثيرًا حسبما أودع في أزهار الأرض ونحوها، وإنّها لا تؤثر إلا بإذنه عز وجل، **كما هو مذهب السلف** في سائر الأسباب العادية..."[14].

ولا أدلَّ على ذلك أيضاً من انتصاره لمذهب السلف وتقريظه لهم في مبحث الاستواء، إذ قال: "وأنت تعلم أن طريقة كثير من العلماء الأعلام وأساطين الإسلام الإمساكُ عن التأويل مطلقاً، مع نفي التشبيه والتجسيم، منهم الإمام أبو حنيفة والإمام مالك والإمام أحمد والإمام الشافعي، ومحمد بن الحسن وسعد بن معاذ المروزي، وعبد الله بن المبارك، وأبو معاذ خالد بن سليمان صاحب سفيان الثوري، وإسحاق بن راهويه، ومحمد بن إسماعيل البخاري، والترمذي وأبو داود السجستاني"[15].

ويَدخُلُ في هذا الباب أيضاً كلامُه على قوله تعالى: (يد الله فوق أيديهم) [الفتح:10]، فبعد أن نقل فيها قولَ الزمخشري في الكشاف، والسكاكي في مفتاح العلوم، وما رواه الواحدي عن ابن كيسان من أن اليدَ هي القوة، وما قاله الزجاج من أن المعنى: يد الله في الوفاء فوق أيديهم، أو في الثواب فوق أيديهم في الطاعة، أو يد الله سبحانه في المنة عليهم في الهداية فوق أيديهم في الطاعة، وقولاً في المسألة آخر، قال: "وكل ذلك تأويلات ارتكبها الخلف، وأحسنها ما ذُكر أولاً، والسلف يُمِرُّون الآية كما جاءت مع تنزيه الله عز وجل عن الجوارح وصفات الأجسام، وكذلك يفعلون في جميع المتشابِهات، ويقولون: إن معرفة حقيقة ذلك فرع معرفة حقيقة الذات، وأنّى ذلك

14 روح المعاني 111/12

15 روح المعاني 472/8

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وهيهات هيهات"[16]، فأكُفُّ الكيفِ مشلولة، وأعناقُ التطاولِ إلى معرفة الحقيقة مغلولة، وأقدامُ السعي إلى التشبيه مكبلة، وأعين الأبصار والبصائر عن الإدراك والإحاطة مسملة:

مرام شط مرمى العقل فيه ودون مداه بيدٌ لا تبيدُ[17]

وأبلغ مما تقدم في تبيان عقيدته السلفية كلامه في مبحث الفوقية الذي يتفق فيه كل الاتفاق مع عقيدة السلف، ويكثر فيه من الإشارة إلى هذه العقيدة والثناء عليها، وذلك لدي حديثه على قوله تعالى "وهو القاهر فوق عباده" [الأنعام 18]. فقد ذكر أقولاً في توجيه الآية تصرفها عن ظاهرها، وبين أن من ذهب إلى هذه الأقوال إنما ذهب إليها فرارًا مما يقتضيه ظاهر الآية من القول بالجهة والله تعالى منزه عنها لأنها محدثة بإحداث العالم وإخراجه من العدم إلى الوجود، قال: "ويلزم أيضًا من كونه سبحانه وتعالى في جهة مفاسد لا تخفى". ثم أخذ في توجيه الآية بما يراه هو فقال: "وأنت تعلم أن مذهب السلف إثبات الفوقية لله تعالى كما نص عليه الإمام الطحاوي وغيره، واستدلوا بنحو ألف دليل". ثم أفاض في نقل ما يؤيد ذلك من النصوص والآثار، قال: "والآيات والأخبار التي فيها التصريح بما يدل على الفوقية ... كثيرة جدًّا، وكذا كلام السلف في ذلك".[18] وقد رد الآلوسي قول من تأول كل نص فيه نسبة الفوقية إليه تعالى بأن "فوق" فيه بمعنى خير وأفضل، كما يقال الأمير فوق الوزير والدينار فوق الدرهم، قال: "وأنت تعلم أن هذا مما تنفر منه العقول السليمة وتشمئز منه القلوب الصحيحة" وذلك لأنه يرى أن هذا من جنس قولك: السيف خير من العصا. على أنه استأنف فقال: "والفوقية بمعنى الفوقية في الفضل مما يثبتها السلف لله تعالى أيضًا، وهي متحققة في ضمن الفوقية المطلقة، وكذا يثبتون

16 روح المعاني 13/251-252 ولا بأس بتحسينه ما ذكره الزمخشري بالنسبة لأقوال الخلف، بل هو دليل على كونه خبيراً في مغائر العبارات، وبديع زمانه في صناعة البديع.

17 روح 474/8

18 روح المعاني 4/ 108

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فوقية القهر والغلبة كما يثبتون فوقية الذات، ويؤمنون بجميع ذلك على الوجه اللائق بجلال ذاته وكمال صفاته سبحانه وتعالى، منزهين له سبحانه عما يلزم ذلك مما يستحيل عليه جل شأنه، ولا يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض، ولا يعدلون عن الألفاظ الشرعية نفيًا ولا إثباتًا، لئلا يثبتوا معنى فاسدًا أو ينفوا معنى صحيحًا، فهم يثبتون الفوقية كما أثبتها الله تعالى لنفسه"[19]. روح 111-110/4 ولا يخفى ما في كلامه من تعريض بما أحدثه بعض الخلف من النزول عن منصة الإيمان بالنصوص إلى حضيض تأويلها، ولا سيما المعتزلة والأشاعرة، مما يجعلني أقلب كف التعجب والاستغراب ممن يبالغون في نفي سلفية الآلوسي ويقولون بأشعريته! وقد عقب العلامة محمود شكري الآلوسي على قول الآلوسي هذا بعد أن نقله بتمامه في كتابه غاية الأماني في الرد على النبهاني بقوله: "وهو مما يزهق روح النبهاني، ويرد التأويل الذي تعلق به الشيخ أحمد الحلبي الكلابي". ثم قفى على ذلك بقوله: "وتفصيل الكلام في هذا المقام يطلب من كتب شيخ الإسلام وتلامذته، فإنهم أحسن من صنف في هذه المسائل، وفيها يجد المنشد ضالته". غاية الأماني 447

على أن ما تقدم يزداد وضوحاً بالنظر إلى موقفه من الأشاعرة، وإن كان يُجِلُّ علماءهم ويحترم كبارهم، فبعدما نقل من كلام أبي الحسن الأشعري[20] في الإبانة ما يفيد أنه على عقيدة الإمام

19

19 هو أبو الحسن علي بن إسماعيل، ولد بالبصرة سنة 270هـ، (في رواية ابن خلكان، وذكر ابن عساكر أنه ولد سنة 260هـ، انظر: الأشعري، أبو الحسن) ومرت حياته الفكرية بمراحل ثلاث: عاش في أولاها في كنف أبي علي الجبائي شيخ المعتزلة في عصره وتلقى علومه حتى صار نائبه وموضع ثقته. ولم يزل أبو الحسن يتزعم المعتزلة أربعين سنة. أما الثانية فقد ثار فيها على مذهب الاعتزال الذي كان ينافح عنه، بعد أن اعتكف في بيته خمسة عشر يوماً، يفكر ويدرس ويستخير الله تعالى حتى اطمأنت نفسه وأعلن البراءة من الاعتزال وخط لنفسه منهجاً جديداً يلجأ فيه إلى تأويل النصوص بما ظن أنه يتفق مع أحكام العقل، وفيها اتبع طريقة عبد الله بن سعيد بن كلاب في إثبات الصفات السبع عن طريق العقل: الحياة والعلم والإرادة والقدرة والسمع والبصر والكلام، أما الصفات الخبرية كالوجه واليدين والقدم والساق فتأولها على ما ظن أنها تتفق مع أحكام العقل وهذه هي المرحلة التي ما زال الأشاعرة عليها. وأما المرحلة الثالثة ففيها أثبت الصفات جميعها لله تعالى من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل ولا تحريف ولا تبديل ولا تمثيل، وفي هذه المرحلة كتب كتاب "الإبانة عن أصول الديانة" الذي عبر فيه عن تفضيله لعقيدة السلف

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أحمد، قال تعليقاً على ما نقل من كلامه: إنه "ظاهر في أنه سلفي العقيدة، وكيف لا والإمام أحمد علم في ذلك، ولهذا نص عليه من بين أئمة الحديث، ويعلم من هذا أن ما عليه الأشاعرة غير ما رجع إليه إمامهم في آخر أمره من اتباع السلف الصالح، **فليتهم رجعوا كما رجع، واتبعوا ما اتبع**"[21]. وبصرف النظر عن مدى موافقة الأشعري فيما انتهى إليه من الاعتقاد للعقيدة السلفية كما تتجلى لدى الإمام أحمد بن حنبل، والتي وصفها عبد الرحمن بدوي بالبساطة (مذاهب الإسلاميين 530-531) مقارنة بما كان عليه الأشعري من الإمعان في علم الكلام وما له من قول في الصفات والكسب وخلق الأفعال والإيمان وما إلى ذلك، وبصرف النظر أيضاً عما إذا كانت العبارة التي منها يستفاد رجوع الأشعري إلى هذه العقيدة، والتي وردت في كتاب الإبانة، من كلام الأشعري أم أنها مقحمة فيه، فإن موقف الآلوسي واضح في الانتصار لهذه العقيدة والرغبة في رجوع سائر الأشاعرة إليها.

ولئن كان عدم جواز الاستغاثة بغير الله من المعلوم من الدين بالضرورة، ولا يقول خلاف ذلك إلا جاهل أو مبتدع، إلا أن حرص الآلوسي على التنبيه على هذه القضية الخطيرة، ورده القاسي على بعض صوفية عصره من المخالفين، يجعلنا ندرج موقفه هذا ضمن ما يستدل به على سلفيته، ذلك أنه يذكرنا بما كان عليه ابن عبد الوهاب رحمه الله في زمانه! فها هو يكرر هذه المسألة عند قوله تعالى: "والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون، أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون"، إذ قال: ما أعظمها آية في النهي على من يستغيث بغير الله

ومنهجهم الذي كان حامل لوائه الإمام أحمد بن حنبل. (وإن كان المستشرق فنسنك يرى أنه ألف كتاب الإبانة في شرة رجوعه عن فكره الاعتزالي، وأن هذا الكتاب لا يمثل الأشعري في تمام نضجه، بل كتابه اللمع، كما يرجح الدكتور حودة غرابة هو الذي يمثل مذهبه الوسط في صورته النهائية). ولم يقتصر على ذلك بل خلف مكتبة كبير ة في الدفاع عن السنة وشرح العقيدة تقدر بثمانية وستين مؤلفاً، وفي تاريخ وفاته خلاف، والراجح أنه توفي سنة 324هـ، ودفن ببغداد ونودي على جنازته: "اليوم مات ناصر السنة".

20 جهود أبي الثناء الآلوسي في الرد على الرافضة ص 98. وقد رجع كثير من الأشاعرة إلى مذهب السلف كالقاضي الباقلاني، والجويني، والفخر الرازي وغيرهم.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

تعالى من الجمادات والأموات، ويطلب منه ما لا يستطيع جلبه لنفسه أو دفعه عنها. على أنه لا يقف هنا، بل يمضي ليناقش بعض أكابر السادة الصوفية قدس الله تعالى أسرارهم، ممن قال بأن الاستغاثة بالأولياء محظورة إلا من عارف يميز بين الحدوث والقدم، فيستغيث بالولي لا من حيث نفسه، بل من حيث ظهور الحق فيه، فإن ذلك بزعمهم غير محظور، لأنه استغاثة بالحق حينئذ، وفي مناقشته لهؤلاء قال مستنكرًا لقولهم هذا ومتعجبًا منه ومتهكمًا عليه: "وأنا أقول: إذا كان الأمر كذلك، فما الداعي للعدول عن الاستغاثة بالحق من أول الأمر؟ وأيضًا إذا ساغت الاستغاثة بالولي من هذه الحيثية، فلتسغ الصلاة والصوم وسائر أنواع العبادة له من تلك الحيثية أيضًا! ولعل القائل بذلك قائل بهذا. بل قد رأيت لبعضهم ما يكون هذا القول بالنسبة إليه تسبيح، ولا يكاد يجري قلمي أو يفتح فمي بذكره، فالطريق المأمون عند كل رشيد الاستغاثة والاستعانة على الله عز وجل، فهو سبحانه الحي القادر العالم بمصالح عباده، فإياك والانتظام في سلك الذين يرجون النفع من غيره تعالى".398/7

ثمَّ لْتستمع أيها القارئ إلى تأوهاته ممن يستغيثون بأهل القبور في مبحث التوكل، وهو يقول: "نعم، لا ينبغي الاستغاثة بغير الله تعالى على النحو الذي يفعله الناس اليوم مع أهل القبور الذين يتخيلون فيهم ما يتخيلون، فآهاً ثم آهاً مما يفعلون".

والآلوسي أخّاذٌ بما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم، وقاف عند حدوده، لا يرى للعدول عنه من سبيل، ومثال ذلك ما قاله تعقيباً على ما أخرجه عبد الرزاق والترمذي وغيرهما من حديث شعيب بن الحبحاب، الذي يفسر فيه الشجرة الطيبة بشجرة النخل، إذ قال بعد أن ساق أقوالاً أخرى في تفسير الشجرة: "وأنت تعلم أنه إذا صح الحديث، ولم يتأت حمل ما فيه على التمثيل، لا ينبغي العدول عنه. 202/7

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ومن تمام ذلك أنه ربما أورد تأويلات معينة، وذكر استحسانه لها، ثم لم يبرح موضعه حتى يبدي ما في نفسه تجاهها لمخالفتها ظواهر النصوص، ودونك قوله بعد أن ساق كلاماً لفخر الدين الرازي في تفسير الشجرة الطيبة ينأى بها عن النخلة الواردة في الأثر، إذ قال: وهو كلام حسن، **لكن فيه مخالفة لظواهر كثير من الآثار، فتأمل!**

ومن هذا الباب رده كلاماً للواسطي مفاده أن من لام نفسه فقد أشرك، إذ قال: **ويأباه ما صح في الحديث القدسي**: يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه، فتأمل!

بل إن الآلوسي ربما رد وجوهاً من التأويل يحتملها اللفظ وتجيزها العربية لمجرد عدم مجيء النقل بها، من ذلك توقفه في قبول ما ارتضاه أبو حيان في البحر من قبول تفسير كلمة "تنظرون" في قوله تعالى: "لأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون" [البقرة: 55] بتنتظرون، أي: لأخذتكم الصاعقة وأنتم تنتظرون إجابة سؤالكم في حصول الرؤية، من قولهم نظرت الرجل أي انتظرته، كما قال:

فإنكما إن تنظراني ساعة من الدهر تنفعني لدى أم جندب

قال الآلوسي: "**لكن هذا الوجه غير منقول، فلا أجسر على القول به، وإن كان اللفظ يحتمله**" 263/1

بل لقد رد ما هو أقرب إلى الدليل العقلي وأخذ بما يوافق النص، وذلك في قوله في صفة العرش: "وأميل أيضاً إلى القول بتقبيب العرش لصحة الحديث في ذلك، والأقرب إلى الدليل العقلي القول بكريته". 476/8

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وقد حشد صاحب كتاب جهود أبي الثناء الألوسي في الرد على الرافضة جمهرةً من الشواهد التي تبين سلفية الآلوسي غير ما ذكرنا، مما لا يحتمل شكاً ولا تأويلاً، وخلص من ذلك إلى أنه سلفي في الجملة[22].

ولا يحسن بنا أن نترك هذا المقام دون الإشارة إلى تعقيبه على ما جاء في قوله تعالى "أأمنتم من في السماء"، إذ قال: "وأئمة السلف لم يذهبوا إلى غيره تعالى، والآية عندهم من المتشابه، وقد قال صلى الله عليه وسلم: آمنوا بمتشابهه، ولم يقل أولوه، فهم مؤمنون بأنه عز وجل في السماء على المعنى الذي أراده سبحانه، مع كمال التنزيه، إلى أن قال: وتأويله بما أول ابن الخلف خروج عن دائرة الإنصاف عند أولي الألباب". ولا سيما أنه اجتهد بعد هذا في نقل أقوال العلماء ممن انتصروا لمذهب السلف في صفة الرب، فنقل قول محمد بن الحسن الشيباني الذي ذكره ابن حجر العسقلاني في فتح الباري، وقول سفيان بن عيينة والإمام الجويني، ثم شيخ شيوخه إبراهيم الكوراني، ثم ختم ذلك بقوله: "وأنا أقول: في التأويل اتباع الظن وقول في الله عز وجل بغير علم، وإلا لاتحد ما يذكرونه من المعنى فيه، مع أن الأمر ليس كذلك، حيث يذكرون في تأويل شيء واحد وجوهاً من الاحتمالات وفيما عليه السلف سلامة من ذلك، ويكفي هذا في كونه أحسن المسالك. على أن أهم ما يجب التنبه إليه هو بيت الشعر الذي ذيل به قوله هذا، وهو:

وماذا عليَّ إذا ما قلت معتقدي دع الجهول يظن الجهل عدوانا[23]

ووضوح ما يومئ إليه البيت يغنينا عن التعقيب عليه.

---

21 جهود أبي الثناء الألوسي في الرد على الرافضة، انظر مثلاً الصفحات 94-105، وانظر كذلك الصفحات 121-126.

23 روح المعاني 15/ 18

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ويحسن بي قبل أن أغادر هذه الجزئية أن أذكر للقارئ الكريم أن الدكتور البوطي كتب لي بعد قراءة هذا البحث ما نصه: "غير أن هنالك من يرى أن الإمام الآلوسي كان قد ترك وراءه ولداً ذا مشرب سلفي، تعقب والده في بعض مواقفه، وأقحم في تفسيره بعض آرائه السلفية متقولاً بها عليه! فهذا هو السبب الخفي في التناقضات التي لا يخلو منها الكتاب. فالله أعلم بحقيقة الأمر".

غير أن آراء الآلوسي السلفية ليست مقصورة على تفسيره، وإنما مبثوثة في غيره من كتبه، كإنباء الأبناء بأطيب الأنباء، وقد قبسنا منه فيما فَرَط شيئاً من هذا، وكذلك كتابه غرائب الاغتراب الذي قال فيه الآلوسي عن الشيخ عارف حكمت إثر حوار علمي دار بينهما في أول لقاء بينهما: "فأحسست أن له ميلاً إلى مذهب السلف الذي تمذهب به أكثر المحققين، فشكرت ربي، وكاد يطير من مزيد الفرح قلبي". كما أن الآلوسي قد امتدح في هذا الكتاب ابن تيمية وانتصر لمذهبه.

ثم إن البصير بنقد النصوص لا يجد في كلام هذا المعترض مقنعاً ولا بلاغاً، ذلك أن جميع المواضع التي وردت فيها آراء الآلوسي السلفية لا يكاد يوجد بينها وبين سائر نصوصه أدنى فرق، لا من حيث اللغة ولا من جهة الأسلوب، بل يدرك المتأمل أنّها من كلام الآلوسي نفسه، وليست موضوعة عليه.

على أن باحثين آخرين يرون أن الآلوسي حياة الآلوسي شهدت تحولاً عقدياً، وأنه رجع بأخرة من حياته عن التصوف إلى السلفية، وأن هذا هو سر وجود تناقضات في تفسيره. وتصفح المجلدات الأولى من تفسير الآلوسي، وإن اشتملت على تفسيره الإشاري الذي سنتحدث عنه فيما سيأتي من قول، يرد هذا الرأي، فآراء الآلوسي العقدية مطردة في جميع تفسيره، لا فرق في ذلك بين أوله وآخره.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ولست أدري فيما يذهب كثير من الناس هذا المذهب في عقيدة الآلوسي، أعني إنكار سلفيته، حتى إن أحد الأساتذة المحكمين الذين نظروا في هذا البحث يوم نشرته بحثاً محكماً في إحدى الجامعات كتب ما نصه: "حاول الباحث الجمع بين النقيضين وذلك تحت عنوان "الألوسي سلفياً" عندما جعل الألوسي سلفي المذهب وهذا لم يقل به إلا الإمام الذهبي وحده، وإنما الذي اشتهر عن الألوسي أنه صوفي المذهب". وليت شعري كيف حكم هذا الأستاذ بانفراد الذهبي بالقول بسلفية الآلوسي. أولم ينبأ بما في صُحُف "ذكرى أبي الثناء"، حيث أكد الأستاذ العزاوي سلفية الآلوسي بعبارة أوضح من الشمس في رائعة النهار؟ فقد قال بعد استطراد في تتبع حالة العقائد في العراق حتى زمن الآلوسي ما نصه: "إن الأستاذ الآلوسي الكبير متأثر بلا شك بهذه المذاهب بموافقة أو مخالفة، عارف بمجاريها، مقتنع بمذهب السلف تماماً". وقد بين الأستاذ العزاوي أن الآلوسي لم يكن بدعاً في ذلك، "وإنما هو مسبوق بآخرين؛ من أجلِّهم أستاذه الشيخ علي السويدي"، ثم ذكر ما قدمه الآلوسي في هذا الصدد، وأن غاية ذلك أنه نشر آراء شيخ الإسلام ابن تيمية وبثها في تفسيره، قال العزاوي: "وكفاه عرضها وإن لم يستطع أن يجهر بالدعوة أو يرجح، ولم يكتف بهذا، وإنما ذكر معارضات ابن حجر له، وترك للقارئ حكمه بدون تعليق حذر أن يجلب على نفسه السخط".[24]

الآلوسي والتصوف

وعلى الرغم مما قدمنا عن سلفية الآلوسي، وما استفاض عن مناصرته لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، الذي يرى جون ڤول[25] أن ما نادى به ربما يكون أبرز مثال على نبذ فكر ابن عربي،

ذكرى أبي الثناء 39[24]

24 هو أستاذ التاريخ في جامعة نيو هامبشر، والرئيس السابق لجمعية دراسات الشرق الأوسط. من مؤلفاته: المعجم التاريخي للسودان.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

خلال القرن الثامن عشر[26]، إلا أن المتمعن لا يخطئ تأثر الآلوسي بالمناخ الصوفي الذي ساد في عصره، و"انتشر انتشاراً واسعاً في زمن الدولة العثمانية، حتى أصبح ظاهرة عامة، وغدا لمعظم الناس آنئذ ارتباط بإحدى الطرق الصوفية، على نحو من الأنحاء، ولم يكن خافياً أن نظرية ابن عربي في وحدة الوجود كانت هي السمة الغالبة على التصوف في تلك الحقبة"[27].

بل إن نظرة إلى شيوخ الآلوسي تذهب بنا إلى ما هو وراء ذلك، فهو لم يكن مجرد متأثر بما ساد في عصره من ظاهرة التصوف، ولكنه انتمى إلى إحدى الطرق الصوفية، وهي الطريقة النقشبندية[28]، وأخذ عن بعض شيوخها، كالشيخ خالد النقشبندي[29] الذي قال فيه: "وقرأت مسألة الصفات من الخيالي، على حضرة مولى لا يصل إلى حقيقة فضائله خيالي، حضرة مولانا ضياء الدين الشيخ خالد النقشبندي، وهو صاحب الأحوال الباهرة، والكرامات الظاهرة، والأنفاس الطاهرة، الذي تواتر حديث جلالته، وأجمع المنصفون على ولايته..." إلى أن يقول فيه: "امتد في المقامات والأحوال باعه، وعُمِرت بالفضل والأفضال أرباعُه"[30]. غير أن الآلوسي يؤكد

---

26. Islam: Continuity and change in the modern world pp. 27-28

27 السابق: 28 (عن ترجمتنا المخطوطة)

27 النقشبندية طريقةٌ صوفيةٌ تُنسب إلى رجل اسمه محمّد بهاء الدين البُخاريّ المولود عام 717 من الهجرة، والمتوفى سنة 791هـ. أما لفظ "نقشبند" فهو مصطلحٌ فارسيٌّ مركّبٌ من كلمتين: إحداهما عربيةٌ؛ وهي "نقش" والثانية فارسيةٌ، وهي "بَنْد". وكان يُطْلَقُ اسم «نقشبند» على الرسّام والنقّاش الّذي يعمل الوشي والنمنمة على الأقمشة في اللّهجة التركية القديمة. والمناسبةُ في إطلاق هذه الكلمة على هذه الطريقة أنّ أهلها يسعون بزعمهم إلى نقش محبة الله في قلوبهم بالذكر المتواصل والسلوك المأثور من سادتهم. ويتشبّث النقشبنديّون بأبي بكر الصدّيق رضي الله عنه، على أنّه هو الحلقة الأولى من سلسلة رجالهم، ويزعمون أنّ ألْقَابَ السلسلة تختلف باختلاف القرون، وأنّ طريقتهم كانت تسمّى "الطريقة الصديقية" في مرحلتها الأولى، بدايةً من عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه إلى عهد أبي يزيد البسطاميّ. وهو الحلقة الخامسة من هذه السلسلة عندهم. ومن أهم المآخذ على هذه الطريقة ما يُعرف عندهم برابطة الشيخ، وهو أن يغمض الذاكر عينيه ويتخيل صورة شيخه الذي تلقى الذكر عنه لمدة من الزمن قبل الدخول في الذكر القلبي.

28 هوخالد بن أحمد بن حسين النقشبندي المجددي، ضياء الدين، أبوالبهاء. ولد سنة 1190هـ، درس في العراق على عدد من مشايخها وتولى فيها التدريس قبل أن يسافر إلى الهند حيث التحق بالطريقة النقشبندية، توفي بدمشق سنة 1242هـ.

30 غرائب الاغتراب، ص 17

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أن شيخه هذا "كان حريصاً على سلوك طريق أهل السنة والجماعة، لا يصرف من أوقاته ساعة في غير حلِّ دقيقةِ علم أو طاعة، حسن السمت والسيرة، إن توجه إلى قلب مريده ملأه نوراً"[31].

وقد أخذ عنه الآلوسي التصوف، إذ أمره هذا الشيخ بالاشتغال بالعلم، وضمن له ألا يُحرم من بركة الطريقة التي يظهر أثر ارتباطه بها في كلامه على لفظ الجلالة الذي يتفق الآلوسي مع الصوفية، لا عن تقليد، كما يقول، في أنه موضوع للذات الجامعة لسائر الصفات، إذ قال: "وإلى ذلك يشير كلام سادتنا النقشبندية، بلّغنا الله تعالى ببركاتهم كل أمنية في الوقوف القلبي، وهو أن يلاحظ الذاكر في قلبه كلما كرر هذا الاسم الأقدس ذاتاً بلا مثل، وحققه الشيخ الأكبر قدس سره في مواضع عديدة من كتبه"[32].

ولئن لم يذكر الآلوسي شيخه خالد النقشبندي إلا في موضع واحد من تفسيره[33]، إلا أننا نجد من بين مؤلفاته كتاب الفيض الوارد على روض مرثية مولانا خالد، وهو شرحٌ لقصيدة للسيد محمد الجواد السياه بوشي، الشاعر البغدادي (ت 1246) في رثاء الشيخ خالد النقشبندي. ومؤلَّفُه هذا يُعَدُّ أهمَّ وثيقة في تحديد موقفه من التصوف وبيان تأثره بشيخه خالد النقشبندي والطريقة النقشبندية عموماً، إذ عقد فيه فصلاً طويلاً للتحدث عن تاريخ حياة شيخه، وتاريخ الطريقة النقشبندية التي يرى أنها أقرب الطرق إلى الكتاب والسنة. وقد أطنب الآلوسي في شرحه

---

30 السابق. وتحسن الإشارة هنا إلى أن صاحب كتاب جهود أبي الثناء الآلوسي في الرد على الرافضة يرى أن سلوك الآلوسي في الطريقة النقشبندية "ربما كان تقية". قال: وخاصة أنه لما وشي به وأصابه بسبب ذلك ما أصابه حتى اضطره إلى الاختفاء، ونهبت كل ممتلكاته وجفاه حتى بعض أصدقائه، وعزم الوزير على قتله لم يجد أحداً يشفع له عند الوزير إلا بعض مشايخ النقشبندية، ثم إنه لم يتمتع بهذا العفو إلا قليلاً، وإذا بأحد نقباء الأشراف يسعى به مرة أخرى، فأمر الوزير بحبسه، فبقي محبوساً نحواً من سنة ونصف. وكان في زمان ومكان لا يكاد يوجد عالم ليست له طريقة، ومن لم تكن له طريقة يكون محل تهمة، وهو اختار هذه الطريقة لأن شيخها كان عالماً من العلماء، وكان مشتغلاً بتدريس العلم وينهى عن النظر في كتب الصوفية.

32 السابق 61/1

33 انظر: روح المعاني 73/3

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

هذا في ذكر التصوف، "فهو يذكر الخواطر وأنواعها وتأثيرها في سلوك الإنسان وتصرفاته، وينقل آراء طائفة من علماء التصوف في ذلك"، بل لقد كسر الآلوسي في هذا الكتاب فصلاً على ذكر المقامات عند الصوفية، ثم تكلم عن العشق الصوفي، شارحاً جملة من مصطلحاتهم، كالقبسات والمشهد والسر والقطب والباطن والتوحيد والأبدال والقرب والجمال والرياضة والعرفان وغيرها.

ويذكر الآلوسي من بين شيوخه أيضاً الشيخ علاء الدين علي أفندي الموصلي الذي أجازه بالصلاة البشيشية، وذلك في قوله في حق سيدنا الخضر عليه السلام: "ومما يبنى على اجتماعه عليه السلام بالكاملين من أهل الله تعالى بعض طرق إجازتنا بالصلاة البشيشية، فإني أرويها من بعض الطرق عن شيخي علاء الدين علي أفندي الموصلي عن شيخه ووالده صلاح الدين يوسف أفندي الموصلي عن شيخه خاتمة المرشدين السيد علي البندنيجي عن نبي الله تعالى الخضر عليه السلام عن الولي الكامل الشيخ عبد السلام بن بشيش قدس سره"[34].

33 روح المعاني 8/308-309. وصيغة الصلاة البشيشية هي: (اللهم صلّ على من منه انشقت الأسرار وانفلقت الأنوار وفيه ارتقت الحقائق، وتنزلت علوم آدم فأعجز الخلائق، وله تضاءلت الفهوم فلم يدركه منا سابق ولا لاحق، فرياض الملكوت بزهر جماله مونقة، وحياض الجبروت بفيض أنواره متدفقة، ولا شيء إلا وهو به منوط، إذ لولا الواسطة لذهب – كما قيل – الموسوط، صلاة تليق بك منك إليه كما هو أهله. اللهم إنه سرك الجامع الدال عليك، وحجابك الأعظم القائم لك بين يديك، اللهم ألحقني بنسبه، وحققني بحسبه، وعرفني إياه معرفة أسلم بها من موارد الجهل، وأكرع بها من موارد الفضل، واحملني على سبيله إلى حضرتك حملا محفوفا بنصرتك، واقذف بي على الباطل فأدمغه، وزج بي في بحار الأحدية، وانشلني من أوحال التوحيد، وأغرقني في عين بحر الوحدة حتى لا أرى ولا أسمع ولا أجد ولا أحس إلا به، واجعل الحجاب الأعظم حياة روحي وروحه سر حقيقتي وحقيقته جامع عوالمي بتحقيق الحق الأول، يا أول يا آخر يا ظاهر يا باطن اسمع ندائي بما سمعت به نداء عبدك زكريا، وانصرني بك لك، وأيدني بك لك، واجمع بيني وبينك، وحُل بيني وبين غيرك، الله الله، إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد، ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيّئ لنا من أمرنا رشداً، سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين). ولعله من فضول القول أن نذكر أنه لم يرد بهذه الصلاة أي أثر، وحجة السادة الصوفية أن الأذكار ليست توقيفية ولا يشترط فيها ورود آثار.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وإن نظرة إلى ما دوّنه الآلوسي من إجابات في كتابه الموسوم بـ "غرائب الاغتراب" لتدل أوضح دلالة على أنه تعمق في التصوف، وخبر أسراره، وعرف دواخله وخوارجه، وبلغ فيه شأواً رفيعاً ومقاماً عالياً. وذلك يدفعني دفعاً لترجيح كون تصوف الآلوسي ليس من باب المداراة المحضة، كما ذهب إليه بعض الباحثين[35]، وإن كانت مجاراة الواقع لعبت دوراً فيه على ما سيأتيك. وبحسبك نظرة إلى ما يجري به قلمه من مصطلحات الصوفية لتعلم بطلان تلك الدعوى، وفي العبارة الآنفة ما يصلح للتمثيل به على ما نقول، فأنت ترى المولى، والحقيقة والأحوال، والكرامات، والولاية، والمريد، وهي مصطلحات صوفية يزخر بها تفسيره كما سيأتي. ولو أنك تتبعت ما قاله في شيخه شعراً لتأكد لديك الأمر، إذ ترى الغوث، والكشف وما إليها، وذلك في قوله:

الإمام الجليل غوث البرايا	غيثها المرتجى ندى إحسانه
ثابت الذهن كم خفايا علوم	قد جلاها بالكشف عن برهانه

بل إننا نقف في كتابه هذا على أكثر من نص له يلمس منه إجلاله لابن عربي، كامتداحه محمود أفندي العمري بأنه "قد جعل الفتوحات المكية ثاني قرآنه، وزين بفصوص الحكم خواتم زمانه"[36]. والأهم منه حديثه عن حضرة مظلوم بك أفندي وما دار بين الرجلين من حديث عن ابن عربي، ذيّله بقوله: "وأنا الآن أقول، غير مبالٍ بمنكرٍ ذي فضول: إن الشيخ قدس سره لا شك في جلالته علماً وعملاً، وإن عنده وكذا عند أمثاله، لكلامه المتشابه من أحسن المحامل محملاً ...

34 هوعبد الله البخاري، انظر: جهود أبي الثناء الآلوسي في الرد على الرافضة. وكلامنا هذا مع أخذنا بعين الاعتبار أن من أصول النقد العلمي الفلسفي للكلام أن يعرف أولاً تاريخ صاحبه في مزاجه وتربيته الدينية والأدبية وقومه وعشرائه ووطنه وحكومته وأخلاقه ومعيشته وأهله وولده وعوارض حياته وأطوارها الاجتماعية والسياسية والشهوانية وغيرها، إذ من المعلوم بالطبع والعقل أن كل ما يعرض للإنسان ووجدانه يكون له أثر في كلام صاحبه. (انظر: المنار 197/33)

36 غرائب الاغتراب 50

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

إلى أن قال: "وبالجملة: أنا معتقد جلالةَ قدره، مفوّضٌ سائرَ أحواله إلى عالمِ جهرِه وسره، ويأبى الله أن أخوض في حقه كما خاض المنكرون، فذاك فضول لا ينبغي أن يرتكبه العالمون، وهذا ما أدين به الملك الديان، غير مداهن به أحداً من أكابر الأعيان"[37].

والآلوسي كثير الأخذ على هؤلاء المنكرين والتعقب لهم، كما رأيت، وكما يظهر في كلامه في تفسيره الإشاري لقوله تعالى: "قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم، ولكن الله يمن على من يشاء من عباده"، إذ قال بعد إيراد الآية: سلموا لهم، أي الأنبياء، المشاركة في الجنس، وجعلوا الموجب لاختصاصهم بالنبوة ما منّ الله تعالى به عليهم مما يرشحهم لذلك، وكثيراً ما يقول المنكرون في حق أجلة المشايخ مثل ما قال هؤلاء الكفرة في حق رسلهم، والجواب نحو هذا الجواب: "وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله" جواب عن قول أولئك "فأتونا بسلطان مبين" ويقال نحو ذلك للمنكرين الطالبين من الولي الكرامة تعنتاً ولجاجاً. 218/7

ثم إننا نجد من بين مصنفات الآلوسي أيضاً كتاب الطراز المذَّهب في شرح قصيدة الباز الأشهب، وهي قصيدة للشاعر العراقي عبد الباقي العمري في مدح الشيخ عبد القادر الجيلاني (ت 561)[38]، وفيها يقف عند القول المنسوب إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني: (قدمي على رقبة كل ولي لله عز وجل)، ويشرحه مبيناً مقصود الصوفية بذلك، وهل على الرمز يحمل أم على الحقيقة.

36 غرائب الاغتراب 145 ولنا عود إلى هذا النص لدى حديثنا عن الآلوسي وابن عربي. وهذا النص والذي سبقه مما أغفله مؤلف كتاب جهود الآلوسي في الرد على الرافضة لأمر ما.

37 هو محيي الدين عبد القادر بن موسى بن عبد الله الجيلاني، يرجع نسبه إلى الإمام حسن بن علي بن أبي طالب، ولد بجيلان سنة 470هـ، وتوفي في بغداد سنة 561هـ وقد جاوز التسعين عاماً، ودفن برواق مدرسته بباب الأزج ببغداد.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

على أن لأعلام الصوفية ومفاهيمهم وآرائهم حضوراً في غير ما ذكرنا من مصنفات الآلوسي، ككتابه الموسوم بالبيان شرح البرهان في إطاعة السلطان، الذي أصله هو كتاب البرهان من تأليف الشيخ عبد الوهاب أفندي ياسين جي زاده، والذي كلفه الوزير علي رضا باشا بشرحه. وكذلك كتابه الموسوم بالأجوبة العراقية للأسئلة الإيرانية، الذي يعد الأهم بعد تفسيره روح المعاني[39]. ناهيك بما حفل به تفسيره الموسوعي، وهو ما كسرنا عليه المبحث الثاني من هذا البحث.

الفصل الثاني: التصوف في روح المعاني

أهمية تفسير روح المعاني ومكانته عند العلماء

لعل تفسير الآلوسي هو أجمع تفسير ألف منذ زمنه إلى زماننا هذا بما أودعه فيه مؤلفه من آراء السلف رواية ودراية، وما ضمنه من أقوال الخلف بكل دقة ورعاية. بل لقد فاق بذلك كثيراً من كتب المتقدمين في التفسير وبذّها وتقدم عليها، وبحسبه مدحاً وتقريظاً أن أدرجه علامةُ تونس الطاهر بن عاشور ضمن أهم التفاسير التي ذكرها في مقدمة تفسيره الموسوم بالتحرير والتنوير، إذ قال: "والتفاسير وإن كانت كثيرة فإنك لا تجد الكثير منها إلا عالة على كلام سابق، بحيث لا حظ لمؤلفه إلا الجمع، على تفاوت بين اختصار وتطويل. وإن أهم التفاسير تفسير الكشاف... وتفسير الشهاب الآلوسي..."[40]. وقد أفاد منه أكثر من جاء بعده من المفسرين، بل جعله نفر منهم من أهم مراجعهم، كالمراغي ومحمد عزة دروزة في تفسيره الحديث. وقد نقل عنه العلامة

39 انظر: السابق 121، وقد جاء ذكر هذا الكتاب في المنار، انظر: المنارالمجلد السابع، الجزء الثالث والعشرون/948

40 التحرير والتنوير 7/1

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الشيخ محمد رشيد رضا مباحث برمتها، كمبحث توريث الأنبياء وغيره. وعليه فلا غرو أن يصفه الذهبي في التفسير والمفسرون بأنه ليس إلا موسوعة تفسيرية قيّمة"[41].

ولئن رجع الآلوسي في تفسيره هذا إلى الكثيرين ممن سبقوه وأخذ عنهم، إلا أنه كان كثير المناقشة لأقوالهم، عميق التمحيص لآرائهم، فهو يقبل منها ويرد، ويأخذ ويدع. ها هو ذا يتعجب من اختيار الزمخشري ..127/7

ويصف ما بينه أبو حيان من تعلق قوله تعالى "له معقبات من بين يديه..." [الرعد: 11] بقوله "ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة..." [الرعد: 6] بأنه مما "لا يرتضيه إنسان" 111/7

ثم ها هو يعود لينتصر لأبي حيان على الإمام فخر الدين الرازي الذي ذهب مذهب الفلاسفة في جعله الرعد اسماً لملك من الملائكة يسبح الله تعالى. قال الآلوسي: "وتعقبه أبو حيان أيضاً بأن غرضه جريان ما يتخيله الفلاسفة على مناهج الشريعة، ولن يكون ذلك أبداً، ولقد صدق رحمه الله تعالى في عدم صحة التطبيق بين ما جاءت به الشريعة وما نسجته عناكب أفكار الفلاسفة..." (روح المعاني 113/7)

أثر الصوفية في تفسير روح المعاني

يؤخذ قارئ روح المعاني بما قد فاض به من أسماء كبار الصوفيين كبشر، وابن عربي، وابن الفارض، والغزالي، والشعراني[42]، وصدر الدين القونوي، والشيخ عبد القادر الكيلاني، وأبي بكر الشبلي الذي وصفه الآلوسي بضرغام أَجَمة التصوف، والجنيد، وغيرهم، ويهوله ما بث فيه من

41 التفسير والمفسرون 361/1. وكان الأولى أن يصف الموسوعة بأنها نفيسة مثلاً، إلا إذا قصد "مستقيمة" وهو بعيد.

42 هو أبو المواهب عبد الوهاب بن أحمد بن علي التلمساني، الفقيه المحدث الصوفي، توفي في جمادى الأولى من سنة 973 هـ. له أكثر من خمسين مصنفاً ذكرها إسماعيل باشا البغدادي في هدية العارفين. انظر: مقدمة الطبقات الكبرى للشعراني ص 4

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

آرائهم ومذاهبهم شعراً ونثراً، مع ما يعلق به على ما يجيئون به، وحسبك للوقوف على ما نقول أن تقلب صفحات تفسير سورة الفاتحة، لترى الأبيات الملغزة لابن الفارض، كقوله من فائيته الشهيرة:

وعلى تفنُّن واصفيه بحسنه يفنى الزمان وفيه ما لم يوصفِ[43]

وقوله منها أيضاً:

لو قال تيهاً قف على جمر الغضى لوقفت ممتثلاً ولم أتوقف

وذلك في كلامه على غلط إبليس في امتناعه عن طاعة أمر ربه بالسجود لآدم، وأنه لم يخطر بباله أن المحب الصادق يمتثل أمر محبوبه كيف كان[44].

ويبدو أن الآلوسي من المعجبين بابن الفارض، فهو يستغل أدنى مناسبة للرجوع إليه وإيراد شعره، كما تجد في كلامه على قوله تعالى: (مثل نوره كمشكاة فيها مصباح) حيث خلص إلى أن سر القرآن يكاد يظهر للخلق قبل دعوة النبي صلى الله عليه وسلم، قال: "وفيه مسحة من معنى قوله:

رق الزجاج وراقت الخمرُ فتشابَها وتشاكل الأمرُ
فكأنما خمر ولا قدحٌ وكأنما قدح ولا خمرُ[45]

43 روح المعاني 68/1

44 السابق 299/7

45 السابق 363/9

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وتراه يصفه بالعارف، كما في قوله في تفسيره الإشاري لـ (طه) بعد أن أغرق في تفسير طه تفسيراً عددياً خلص منه إلى أنه صلى الله عليه وسلم أبو الخليقة وأمها، إذ قال: وقد أشار إلى ذلك العارف ابن الفارض قدس سره بقوله على لسان الحقيقة المحمدية:

وإني وإن كنت ابن آدم صورة فلي منه معنى شاهد بأبوتي[46]

ولا يقف الأمر بالآلوسي عند هذا الحد، بل إنك تراه يُسوّغ ما وقع في شعر ابن الفارض مما وقع عليه الاعتراض من بعض الأجِلّة، من مثل تعبيره عن الذات الإلهية بنحو نُعْمٍ وليلى، كما في قوله:

أَبَرْقٌ بدا من جانبِ الغَورِ لامعُ أم ارتفعتْ عن وجه ليلى البراقعُ

وقوله:

إذا أنعمت نُعْمٌ عليَّ بنظرةٍ فلا أسعدتْ سُعدى ولا أجملتْ جُملُ

ذلك أن الآلوسي بعد أن أسلف ذكرَ عيبِ بعض العلماء هذا الضرب من الشعر وعدِّهم إياه من سوء الأدب المخالف لقوله تعالى: (ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها) [الأعراف:180]، وإجابةِ بعضهم بأن ذلك ليس من الوضع في شيء، وأن فهم الحضرة الإلهية من تلك الألفاظ إنما هو بطريق الإشارة، قال: "والمنكر لا يقنع بهذا، والأظهر أن يقال: إن الكلام المورد فيه ذلك من قبيل الاستعارة التمثيلية، ولا نظر فيه إلى تشبيه المفردات بالمفردات، فليس فيه التعبير عنه عز وجل بليلى ونحوها، والاستعارة التمثيلية في شأنه تعالى مما لا بأس به"[47].

وكذلك يصف الآلوسي الكيلاني بالإمام الرباني، مقفياً على ذلك بنحو: سيدي وسندي، وقدس سره. أما الحلاج (309هـ)، فلم يكن موقف الآلوسي منه مطرداً، فهو تارة يؤول له بعض

46 روح المعاني 419/2

47 روح المعاني 315/15

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

شطحاته، كقوله: "أنا الحق"، وذلك أنه ينقل في تفسيره قول بعض العارفين: "إن الله تعالى أظهر النفس وزينها بكسوة الربوبية، وملأها باللطف والقهر وكساها زينة الملك من الأموال ابتلاء وامتحاناً، فمن نظر إلى نفسه بعين زينة الربوبية فَنِيتْ نفسه فيها ونطق لسان الربوبية منه، وصار كشجرة موسى عليه السلام حيث نطق الحق منها، وذلك مثل الحلاج القائل: أنا الحق"[48].

أو يضربه مثلاً في تفسيره الإشاري لقوله تعالى: (واتخذ الله إبراهيم خليلاً) [النساء: 125]، إذ قال: حيث تخللت المعرفة جميع أجزائه من حيث ما هو مركب، فلم يبق جوهر فرد إلا وقد حلت فيه معرفة ربه عز وجل، فهو عارف به بكل جزء منه، ومن هنا قيل: إن دم الحلاج لما وقع على الأرض انكتب بكل قطرة منه: الله، وأنشد:

ما قدّ لي عضو ولا مفصل إلا وفيه لكم ذِكْر

وطوراً تراه يرجع لينسب إليه الحلج والندف، وذلك في كلامه على قوله تعالى: (وإن من شيء إلا يسبح بحمده) [الإسراء: 44] إذ قال: "وزعم من زعم أن الجاحدَ مقدّسٌ أيضاً، وأنشدوا للحلاج:

جحودي لك تقديسُ وعقلي فيك منهوسُ

---

48 السابق 2/364-365، وقول الحلاج أنا الحق، جاء في شعر له وهو قوله:

أنا الحق والحق للحق حق لابس ذاته فما ثم فرق

ومثله قوله:

أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنا

فإذا أبصرتني أبصرته وإذا أبصرته أبصرتنا معا

وللحلاج أقوال أخرى كثيرة لا تقبل التأويل، فيها تصريح بالقول بالحلول، ولذلك فقد أبعده أقطاب التصوف في بغداد عن حلقاتهم، كالجنيد وعمرو بن عثمان المكي، وعلي بن سهل الأصبهاني، وأبي يعقوب النهرجوري الذي زوجه ابنته في بداية أمره، فلما تبين له حقيقة أمره ودعواه الحلول، أخذها منه حتى لا تكون تحت سلطة كافر. ومنتهى القول فيه ما قاله ابن تيمية من أنه "ليس أحد من مشايخ الطرق، لا أولهم ولا آخرهم، يصوب الحلاج في جميع مقاله، بل اتفقت الأمة على أنه إما مخطئ، وإما عاص، وإمامفاسق،وإماكافر،ومن قال إنه مصيب في جميع هذه الأقوال المأثورة عنه فهو ضال، بل كافر بإجماع المسلمين.الاستقامة(1/166-167)وانظر: في التصوف الإسلامي للأستاذ الدكتور حسن الشافعي والأستاذ الدكتور أبو اليزيد العجمي ص 122.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فما آدم إلاك وما في الكون إبليسُ"

ثم قفّى على ذلك بقوله: "وأنت تعلم أن مثل هذا الحلج والندف صار سبباً لما لاقى من الحتف، فماذا عسى أقول سوى حسبنا الله ونعم الوكيل"[49].

ويَلفِتُ انتباهَ المطالع لتفسير الآلوسي اجتهادُه في تبرئة الصوفية مما ينسب إليهم مما يخالف ثوابت الشريعة، واتهامِ المنكرين عليهم بالقصور في بلوغ مراميهم وإدراك معانيهم وتذوق مشاربهم، كما نرى في قوله: "ثم لا يتوهمن أن كلمات سادتنا الصوفية قدس الله تعالى أسرارهم تدندن حول كلمات النصارى، كما يزعمه من لا اطلاع له على تحقيق كلامهم ولا ذوق له في مشربهم، وذلك لأن القوم –نفعنا الله تعالى بهم– مبرؤون عما نسبه المحجوبون إليهم من اعتقاد التجسيم والعينية والاتحاد والحلول"[50]، ثم بسطِه القول في شرح هذا الكلام والاستدلال عليه.

وجملة القول أن الآلوسي يرجع للصوفيه وينقل آراءهم ويعتبر أقوالهم، بل لقد ذكر في مقدمة تفسيره أن كلام السادة الصوفية في القرآن "من باب الإشارات إلى دقائق تنكشف على أرباب السلوك ويمكن التطبيق بينها وبين الظواهر المرادة، وذلك من كمال الإيمان ومحض العرفان"[51]، بل إنه يرى في قوله تعالى: (إن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا) [فصلت: 40] "إشارة إلى سوء المنكرين على الأولياء، فإنهم من آيات الله تعالى"، قال: "والإنكار من الإلحاد، نسأل الله تعالى العفو والعافية"[52].

---

49 السابق 83/8، وانظر: شخصيات قلقة في الإسلام 74

50 روح المعاني 208/3-209

51 روح المعاني 8/1

52 روح المعاني 10/13

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ونحوٌ من هذا ما ذكره من باب الإشارة في قوله تعالى: (وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة) [يونس: 60] إذ ذكر أن فيه إشارةً إلى سوء حال المنكرين على من تحلى بالمعارف الإلهية، وأن منشأ ذلك زعمُهم انحصارَ العلم فيما عندَهم، قال: "ولم يعلموا أن وراءهم علوماً لا تحصى، يمن الله تعالى بها على من يشاء"[53]. ثم يتعجب الآلوسي من رد هؤلاء ما يأتي به أهل الله مما يخالف ما عليه مجتهدوهم، ولا يكتفي بهذا، بل يأخذ في نقاش مسألة الاجتهاد وشروط المجتهد. ثم يرى أنه يمكن أن يقال إن ثمة مجتهداً نقلياً ومجتهداً آخر شرطه تصفية النفس وتزكيتها وتخلقها بالخلق الرباني وتهيؤها واستعدادها لقبول العلم من الله تعالى، قال: "فلا ينبغي للمصنف العارف بأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء من عباده إلا أن يسلم لمن ظهرت فيه آثار التصفية والتهيؤ، وسطعت عليه أنوار التخلق بالخلق الرباني ما أتى به، ولو لم يأت به مجتهد، ما لم يخالف ما عُلم مجيئه من الدين بالضرورة، ويأبى الله تعالى أن يأتي ذلك بمثل ما ذُكر"[54].

تفسيره الإشاري

وأولى بالذكر مما قدمنا في بيان أثر التصوف في تفسير الآلوسي تفسيرُه الإشاري[55] الذي يبحث في بواطن الآيات، ذلك أن الآلوسي يبالغ في التأكيد على أن للقرآن الكريم ظاهراً وباطناً[56]،

---

53 روح المعاني 165/6

54 روح المعاني 166/6

50 قال ابن عاشور: "أما ما يتكلم به أهل الإشارات من الصوفية في بعض آيات القرآن من معان لا تجري على ألفاظ القرآن ظاهراً، ولكن بتأويل ونحوه، فينبغي أن تعلموا أنهم ما كانوا يدعون أن كلامهم في ذلك تفسير للقرآن، بل يعنون أن الآية تصلح للتمثيل بما في الغرض المتكلم فيه، وحسبكم في ذلك أنهم سموها إشارات ولم يسموها معاني، فبذلك فارق قولهم قول الباطنية. انظر: التحرير والتنوير 32/1. وانظر أيضاً مقالة الذهبي في التفسير الصوفي الفيضي أو الإشاري في "التفسير والمفسرون" 352/2-379

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

مجتهداً في سوق ما يفيد ذلك ويؤكده، حتى قال: "فلا ينبغي لمن له مسكة من عقل، بل أدنى ذرة من إيمان أن ينكر اشتمال القرآن على بواطن يفيضها المبدأ الفياض على بواطن من شاء من عباده"[57]. بل يمضي إلى ما هو أبعد من ذلك، فيرى أنه "ما من حادثة ترسم بقلم القضاء في لوح الزمان إلا وفي القرآن العظيم إشارة إليها"، وقد جعل من ذلك ما ذكره ابن خَلكان في تاريخه من أن السلطان صلاح الدين لما فتح مدينة حلب أنشد القاضي محيي الدين قصيدة بائية كان من جملتها قوله:

وفتحُكَ القلعة الشهباءَ في صفرٍ مبشرٌ بفتوح القدس في رجبِ

وقد جعل الآلوسي هذا الباب من تفسيره مجلى لأقوال المتصوفة وآرائهم، ولكنه مع ذلك لا يقبل تلك الآراء على عواهنها، ولا يسلم لأصحابها، بل يناقشهم الحساب، ويغلظ لهم القول إن رأى في أقوالهم ما يصادم ثوابت الشريعة أو قواعد العربية، كما سيأتيك لدى بحثنا مخالفاته لابن عربي.

نموذج من تفسيره الإشاري

وأود هنا أن أسوق نموذجاً لهذا الضرب من التفسير على طوله، لتضح صورته للقارئ غير المطلع على تفسير الآلوسي، وذلك قوله تعالى: "ألم" الرعد، إذ يقول: ومن باب الإشارة: "ألم" أي الذات الأحدية واسمه العليم واسمه الأعظم ومظهره الذي هو الرحمة. "تلك آيات" علامات "الكتاب" الجامع الذي هو الوجود المطلق "الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها" أي بغير

---

51 قال ابن عاشور: "... فإن قلت: فما روي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن للقرآن ظهراً وبطناً ومطلعاً"، وعن ابن عباس أنه قال: إن للقرآن ظهراً وبطناً؟ قلت: لم يصح ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم، بل المروي عن ابن عباس، فمن هو المتصدي لروايته عنه؟ على أنهم ذكروا من بقية كلام ابن عباس أنه قال: "فظهره التلاوة وبطنه التأويل"، فقد أوضح مراده إن صح عنه بأن الظهر هو اللفظ والبطن هو المعنى. انظر: التحرير والتنوير 32/1

57 روح المعاني 8/1

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

عمد مرئية، بل بعمد غير مرئية، وجعل الشيخ الأكبر قدس سره عمادها الإنسان الكامل، وقيل: النفس المجردة التي تحركها بواسطة النفس المنطبعة، وهي قوة جسمانية سارية في جميع أجزاء الفلك لا يختص بها جزء دون جزء لبساطته، وهي بمنزلة الخيال فينا وفيه ما فيه، وقيل: رفع سماوات الأرواح بلا مادة تعمدها، بل مجردة قائمة بنفسها. "ثم استوى على العرش" بالتأثير والتقويم، وقيل عرش القلب بالتجلي "وسخر الشمس" شمس الروح بإدراك المعارف الكلية واستشراف الأنوار العالية "والقمر" قمر القلب بإدراك ما في العالمين والاستمداد من فوق ومن تحت، ثم قبول تجليات الصفات "كل يجري لأجل مسمى" وهو كماله بحسب الفطرة. "يدبر الأمر" في البداية بتهيئة الاستعداد وترتيب المبادئ، "يفصل الآيات" في النهاية بترتيب الكمالات والمقامات "لعلكم بلقاء ربكم" عند مشاهدة آيات التجليات "توقنون" عين اليقين.

ثم يمضي الآلوسي لينقل عن ابن عطاء قوله: يدبر الأمر بالقضاء السابق، ويفصل الآيات بأحكام الظاهر، لعلكم توقنون أن الله تعالى الذي يجري تلك الأحوال لا بد لكم من الرجوع إليه سبحانه، "وهو الذي مد الأرض" أي أرض قلوب أوليائه ببسط أنوار المحبة "وجعل فيها رواسي" المعرفة لئلا تتزلزل بغلبة هيجان المواجيد، وجعل فيها "أنهاراً" من علوم الحقائق "ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين" وهي ثمرات أشجار الحكم المتنوعة "يغشي الليل النهار" تجلي الجلال وتجلي الجمال... 7/127-128

ولما كان واضحاً أن هذه الإشارات ليس لها من ضابط يضبطها، وأن المستنبط ربما استنبط من الآية الواحدة عشرات الإشارت، وأعمل فيها مباضع التأويل كيفما شاء، إذ من غير الخافي أن من ركب سفينة التأويل وجعل أشرعته من الذوق والكشف والوجدان، خاضت به لجة الأوهام، ورست به على شاطئ الإلحاد والعياذ بالله، فإن الآلوسي وقف عند هذه النقطة، وأبدأ وأعاد في الإجابة عنها، وتَبيان موقفه منها، وذلك في مقدمة تفسيره، ثم لدى كلامه على قوله تعالى:

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

"ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء"، حيث ذكر قول ابن الزنجاني من أن الرعد صعقات الملائكة والبرق ذفرات أفئدتهم والمطر بكاؤهم، وأن الزمخشري جعل هذا من بدع المتصوفة، ثم عقب على ذلك بقوله: "وكأني بك تقول: إن أكثر ما ذُكر في باب الإشارة من هذا الكتاب من هذا القبيل، والجواب أنا لا ندعي إلا الإشارة، وأما أن ذلك مدلول اللفظ أو مراد الله تعالى، فمعاذ الله تعالى من أن يمر بفكري، واعتقاد ذلك هو الضلال البعيد، والجهل الذي ليس عليه مزيد، وقد نص المحققون من الصوفية على أن معتقد ذلك كافر والعياذ بالله تعالى، ولعلك تقول: كان الأولى مع هذا ترك ذلك، فنقول: قد ذكر مثله من هو خير منا، والوجه في ذكره غير خفي عليك لو أنصفت".[58]

وأنت إذا تأملت كلام الآلوسي هذا، وأعطيته ما يستحق من النظر، علمتَ مبلغ جهل من اتّهمه بموافقة الباطنية والأخذ عنهم، ورأيتَ، لو كنت من المنصفين، أنه لم يتنكب طريق الحق، ولا حاد عن جادة الصواب، إذ في كلامه بيان شاف لحرصه، رحمه الله، على التفريق بين منهج الباطنية وطرقهم في التأويل التي تعطل ظواهر النصوص، وبين منهج من يستنبطون بعض الإشارات من الكتاب الحكيم.

ويُقَوِّي هذا ما ذكره الآلوسي من أن ابن عطية ذكر أنه روي عن ابن عباس أنه قال في قوله تعالى: (أنزل من السماء ماء) يريد بالماء الشرع والدين، وبالأودية القلوب، ومعنى سيلانِها بقدرها أخذ النبيل بحظه والبليد بحظه. وأنه، أي ابن عطية، قال: وهذا قول لا يصح، والله تعالى أعلم، عن ابن عباس، لأنه ينحو إلى قول أصحاب الرموز، وقد تمسك به الغزالي وأهل ذلك الطريق،

---

[58] روح المعاني 7/ 130

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وفيه إخراج اللفظ عن مفهوم كلام العرب بغير داع إلى ذلك، وإن صح ذلك عن ابن عباس فيقال فيه: إنما قصد، رضي الله تعالى عنه، أن قوله تعالى: (كذلك يضرب الله الحق والباطل) معناه الحق الذي يتقرر في القلوب والباطل الذي يعتريها. ويعقب الآلوسي على كلام ابن عطية هذا بقوله: "ونحن نقول: إن صح ذلك فمقصود الخبر منه الإشارة، وإن كان يريد غير ظاهر فيه، وحجة الإسلام الغزالي عليه الرحمة من أشد الناس على أهل الرموز القائلين بأن الظاهر ليس مراد الله تعالى، كما لا يخفى على متتبعي كلامه".

أضف إلى ما تقدم توقفه في كثير مما يأتي به المتصوفة في كلامهم عن أسرار العبادات. فالآلوسي يثبت في تفسيره سراً لكون هدي النبي صلى الله عليه وسلم من الإبل، مع أنه جاء فيها أنّها شياطين، مما جعل الصلاة في معاطنها مكروهة، وهو "الإشارة إلى أن مقامه عليه الصلاة والسلام رد البعداء من الله تعالى إلى حال التقريب"، بيد أنه بعد أن ساق جملة من أسرار الحج، قال: "وقد ذكروا لجميع أفعال الحج أسراراً من هذا القبيل، وعندي أن أكثرها تعبدية، وأن أكثر ما ذكروه من قبيل الشعر، والله تعالى الموفق للسداد".[59] ونحو من هذا تعليقه على ما جاء به أهل الإشارات في قصة ذي القرنين، إذ قالوا إن ذا القرنين إشارة إلى القلب، أو إلى الشيخ الكامل، ويأجوج ومأجوج إشارة إلى الدواعي والهواجس الوهمية والوساوس والنوازع الخيالية، أو إلى القوى والطبائع، والأرض إشارة إلى البدن، قال الآلوسي: "وهكذا فعلوا في باقي ألفاظ القصة، ورامو التطبيق بين ما في الآفاق وما في الأنفس، ولعمري لقد تكلفوا غاية التكلف، ولم يأتوا بما يشرح الخاطر ويسر الناظر" ولم يتوقف الآلوسي هنا، بل ذكر أن الأولى أن يقال: الإشارة في القصة إلى

[59] روح المعاني 153/9

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

إرشاد الملوك لاستكشاف أحوال رعاياهم وتأديب مسيئهم والإحسان إلى محسنهم وإعانة ضعفائهم ودفع الضرر عنهم وعدم الطمع بما في أيديهم وإن سمحت به أنفسهم لمصلحتهم.[60]

ويرى الآلوسي من باب الإشارة في قوله تعالى: (وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله) منع طلب الكرامات واقتراحها من المشايخ. وتراه يستغل هذا الباب من تفسيره لتأكيد وجوب التزام الشرع للسالكين، فها هو ذا ينقل عن الجنيد قدس سره قوله: لا يرتقي أحد في درجات العبودية حتى يحكم فيما بينه وبين الله تعالى أوائل البدايات، وهي الفروض والواجبات والسنن والأوراد، ومطايا الفضائل عزائم الأمور، فمن أحكم على نفسه هذا، منّ الله تعالى عليه بما بعده. 168/7

ونحو من هذا ما نقله من رأي من رأى أن الإشارة بالنحل، في قوله تعالى: "وأوحى ربك إلى النحل" إلى الذين هم في مبادي السلوك من أرباب الاستعداد، قال: ومن هنا قال الشيخ الأكبر قدس سره في مولانا ابن الفارض قدس سره حين سئل عنه: نحلة تدندن حول الحمى، أمرهم الله تعالى أولاً أن يتخذوا مقارَّ من العقائد الدينية التي هي كالجبال في الرسوخ والثبات، ومن العبادات الشرعية التي هي كالشجر في التشعب، ومن المعاملات المرضية التي هي كالعروش في الارتفاع، ثم يسلكوا سبله سبحانه وطرقه الموصلة إليه جل شأنه، من تهذيب الباطن والمراقبة والفكر، ونحو ذلك متذللين خاضعين غير معجبين. وفي ذلك إشارة إلى أن السلوك إنما يصح بعد تصحيح العقائد ومعرفة الأحكام الشرعية، ليكون السالك على بصيرة في أمره، وإلا فهو كمن ركب متن عمياء، وخبط خبط عشواء، ومتى سلك على ذلك الوجه حصل له الفوز

---

[60] روح المعاني 375/8

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بالمطلوب، وتفجرت ينابيع الحكمة من قلبه، وصار ما يقذف به قلبه كالعسل شفاء من علل الشهوات وأمراض النفس لا سيما مرض التثبط والتكاسل عن العبادة، وهو المرض البلغمي. 445/7

وربما وصف كلاماً مما ينقله في تفسيره الإشاري بأنه كلام فلسفي، وقد مضى انتصاره لأبي حيان على الرازي فيما يتعلق بجريان كلام الفلاسفة على الشريعة، وأنه لا يرى ذلك واقعاً إلا في أقل القليل. انظر إن شئت إلى تعليقه على ما نقله مِن جَعْلِهِمُ الألواح أربعة: لوح القضاء السابق العالي عن المحو والإثبات، وهو لوح العقل الأول. ولوح القدر، وهو لوح النفس الناطقة الكلية التي يفصل فيها كليات اللوح الأول، وهو المسمى باللوح المحفوظ. ولوح النفوس الجزئية السماوية التي ينتقش فيها كل ما في هذا العالم بشكله وهيئته ومقداره، وهو المسمى بالسماء الدنيا، وهو بمثابة خيال العالم، كما أن الأول بمثابة روحه والثاني بمثابة قلبه. ثم لوح الهيولى القابل للصور في عالم الشهادة. قال: وهو كلام فلسفي. 168/7 ولا أحسبه إلا غير راض به.

الآلوسي ووحدة الوجود

على أن للآلوسي في عدد من كتبه أقوالاً قد يشى ظاهرها بأنه يقبل بالقول بوحدة الوجود. وقد تنبه إلى ذلك صاحب كتاب الآلوسي مفسراً، قال: "يدل على ذلك قوله: "والكلام عليها (وحدة الوجود) قد شاع وكثر قديماً وحديثاً، وردها قوم قاصرون غافلون محجوبون، وقبلها قوم عارفون محققون، ومَن ردها فإنما ردها لعدم فهمها وقصور ذهنه عن معناها""[61].

61 الآلوسي مفسراً 97

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ومما يستأنس به في ذلك قوله في معنى قوله تعالى (يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً، وما يضل به إلا الفاسقين) [البقرة:26]: "... ومن ذلك كتب كثير من الصوفية قدس الله تعالى أسرارهم، فإنه قد هدى بها أرباب القلوب الصافية، وضل بها الكثير، حتى تركوا الصلاة، واتبعوا الشهوات، وعطلوا الشرائع، واستحلوا المحرمات، وزعموا والعياذ بالله أن ذلك هو الذي يقتضيه القول بوحدة الوجود التي هي معتقد القوم نفعنا الله تعالى بفتوحاتهم"[62].

غير أننا نجد الآلوسي، وإن ذكر القول بوحدة الوجود في مواضع متعددة من تفسيره، إلا أنه يرى أن الخوض في مثل هذا الكلام منافٍ للسلامة، بل يرى أن وحدة الوجود مسألة حارت فيها الأفهام، وضل بسببها كثير من الأنام، يظهر هذا في قوله: "ونقل العارف الجامي قدس سره في نفحاته عن القاشاني أن قوله تعالى: (سنريهم) إلخ، يدل على وحدة الوجود، وقد رأيتُ في بعض كتب القوم الاستدلال به على ذلك، وجعل ضمير (أنه الحق) إلى المرئي، وتفسير الحق بالله عز وجل، ومن هذا ونحوه قال الشيخ الأكبر قدس سره: "سبحان من أظهر الأشياء وهو عينها"، وهذه الوحدة هي التي حارت فيها الأفهام وخرجت لعدم تحقيق أمرها رقاب من ربقة الإسلام"[63].

والآلوسي، وإن عمد في الفيض الوارد إلى الدفاع عن ابن عربي (ت 638) وابن الفارض (632) والتلمساني الأندلسي (ت 594) والجيلي (ت 832) وأخذ في توجيه أقوالهم في وحدة الوجود، إذ رأى فيه أن أقوالهم صحيحة، لأن علومهم مبنية على الكشف والعيان، لا على

62 السابق 177، وانظر: روح المعاني 8/4

63 روح المعاني 9/13

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الخواطر الذهنية والأذهان، إلا أنه مع ذلك يدعو الناس إلى ترك الخوض في مثل هذه المسائل الخطيرة[64].

ويظهر تخوفه من الخوض في هذه المسائل كذلك فيما يرى من إشارة في قوله تعالى: (وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين، ما خلقناهما إلا بالحق) [الدخان:38-39] إذ ذكر أن الصوفية قالت إن فيه إشارة إلى الوحدة، قال: "وأفصح بعضهم فقال: الحق هو عز وجل، والباء للسببية، أي ما خلقناهما إلا بسبب أن تكون مرايا لظهور الحق جل وعلا، ومن جعل منهم الباء للملابسة أنشد:

رق الزجاج ورقت الخمرُ فتشابها وتشاكل الأمرُ

فكأنما خمر ولا قدحٌ وكأنما قدح ولا خمرُ

قال: "**والعبارة ضيقة، والأمر طور ما وراء العقل، والسكوت أسلم**".[65]

بل إننا نقف في تفسيره على نصوص يلوح منها رَدُّه القول بوحدة الوجود، وأخذُه على ابن عربي المبالغة في الاعتقاد بها، وذلك فيما يرى من إشارة في قوله تعالى (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم)، وهي أن الخلق لا يرون الآيات إلا بإراءته عز وجل، وهي كشف الحجب ليظهر أن الآيات ما شمت رائحة الوجود، ولا تشمه أبداً، وأنه عز وجل هو الأول والآخر والظاهر والباطن، كان الله ولا شيء معه، وهو سبحانه الآن على ما عليه كان، قال: "وإليه الإشارة عندهم بقوله تعالى: (حتى يتبين لهم الحق)، ومن هنا قال الشيخ الأكبر قدس سره:

ما آدم في الكون ما إبليسُ ما ملكُ سليمانَ وما بلقيسُ

64 الآلوسي مفسراً 97

65 روح المعاني 135/13

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الكل إشارة وأنت المعنى يا من هو للقلوب مغناطيسُ"

قال الآلوسي: "وأكثر كلامه قدس سره من هذا القبيل، **بل هو أم وحدة الوجود وأبوها، وابنها وأخوها**، وإياك أن تقول كما قال ذلك الأجلّ، حتى تصل بتوفيق الله تعالى إلى ما إليه وصل، والله عز وجل الهادي إلى سواء السبيل"[66].

وأراني، بعد إنعام النظر وإطالة التأمل فيما كتب الآلوسي في تفسيره فيما يتعلق بهذه القضية العقدية الخطيرة، أميل إلى القطع بأنه لا مفر من حمل ما جاء في بعض كتبه مما قد يفهم منه أنه ربما يقبل القول بوحدة الوجود على أنَّ له فيها تأويلاً يخرجها من دائرة ما يتعارض مع العقيدة الإسلامية الصحيحة، وأرى أن ما مضى من عباراته يكاد ينطق بذلك، وإلا فدونك قوله في هذا المعنى، إذ يقول: "وللشيخ إبراهيم الكوراني قدس سره النوراني عدة رسائل في تحقيق الحق فيها وتشييد مبانيها، **نسأل الله تعالى أن يمن علينا بصحيح الشهود، ويحفظنا بجوده عما علق بأذهان الملاحدة من وحدة الوجود**"[67].

---

58 روح المعاني 10/13، يرى بعض الباحثين أن ابن عربي ربما أخذ وحدة الوجود عن ابن رشد الذي ربما يكون له إسهام في هذه النظرية في صورتها المبدئية، فقد كان له "في مسألة اتحاد العقل الإنساني بالعقل الفعال رأي خاص انفرد به عن أرسطو وابن سينا ونحا فيه منحى المتصوفين"، ومن هنا فقد ذهبوا إلى أن ابن رشد، وإن "لم يكن من حملة وحدة الوجود المتطورة إلى الشكل الصوفي، فهو الذي وضع بذرتها وتعهدها الصوفية من بعده". انظر: ابن رشد: فيلسوف الشرق والغرب، في الذكرى المئوية الثامنة لوفاته، ص 443-444. ولكن من المعروف أن وحدة الوجود "هي فكرة هندية، ولا زال أثرها واضحاً في الآداب الهندية، قوامها أن كل شيء في الوجود متصل بوحدة ثابة جامعة، وأنه مهما تتباين الأشكال والأوصاف والمظاهر، فالكل واحد، وما الحيوان والجماد والنبات إلا مظاهر لشيء واحد يتلاقى في الحقيقة ويتفق في الجوهر، وإن اختلف في الشكل والمظهر". انظر: ابن تيمية: حياته وعصره، آراؤه وفقهه، للإمام محمد أبو زهرة.

59 روح المعاني 9/13، وفي المنار: "... فمن أصول الضلالة التي دخلت على المسلمين من باب التصوف المقابلة بين الحقيقة والشريعة، ... ومنها أصل الأصول عند غلاتهم، وهو ما يعبرون عنه بوحدة الوجود بالمعنى الذي يمثله الكتاب المسمى بـ (الإنسان الكامل) وأمثاله، وهذا الأصل مخالف لنصوص القرآن الصريحة، ولنصوص السنة الصحيحة، وفيه مفاسد كثيرة جداً، ولكن من الناس من يفهم وحدة الوجود على غير هذا الوجه. انظر: المنار 52/19-53. أقول: وأكثر متصوفة القطر السوري يفهمون وحدة الوجود على غير الوجه المذكور، ويحبون أن يسموها وحدة الشهود، ومنهم المرحوم الشيخ ملا رمضان البوطي الذي كان يؤكد أن وحدة الوجود بمعناها الفلسفي "باطل من القول والاعتقاد، ويجزم بكفر معتقدها، وأما وحدة الشهود، وهي شهود صفات الخالق في مكوناته ومخلوقاته، فقد كان يؤكد بأنها من أهم نتائج الإيمان وثمراته". انظر: هذا والدي، القصة الكاملة لحياة الشيخ ملا رمضان البوطي، للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي. ص 112، ومن المعقول جداً أن يكون الآلوسي من أصحاب هذا التأويل كما يظهر من كلامه.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وآية ذلك أن الآلوسي بالغ في نفي القول بالتجسيم والعينية والاتحاد والحلول، بل واستدل، بكلام لابن عربي في هذا السياق، كدأبه في التشبث بما يخدم فكرته في نفي ما تعارضه قواطع العقيدة من كلام ابن عربي نفسه، فبعد أن ذكر ضَرْبَه تجلي نور الشمس في البدر في الباب الثاني والتسعين ومائتين من الفتوحات، وقياسه عليه تجلي الخالق في عبده من غير حلول ولا امتزاج، قال: "وهذا نصٌّ في نفي الحلول، ومنشأ غلط المحجوبين المنكرين عدم الفهم لكلام هؤلاء السادة نفعنا الله تعالى بهم على وجهه، وعدم التمييز بين الحلول والتجلي ولم يعلموا أن كون الشيء مجلى لشيء ليس كونه محلاً له، فإن الظاهر في المرآة خارج عن المرآة بذاته قطعاً، بخلاف الحالِّ في محل فإنه حاصل فيه"[68].

على أن الآلوسي يُقرّ أنه وقع في كلامهم التعبير بالحلول، ولكنه تأول ذلك على أنه الظهور، قال: "ومن ذلك قوله:

يا قبلتي قابليني بالسجودِ فقد رأيت شخصاً لشخصٍ فيه قد سجدا

لاهوته حل ناسوتي فقدسني إني عجبت لمثلي كيف ما عُبدا"[69]

ومع ذلك فلا يُخفي الآلوسي اعتراضَه على مثل هذه العبارات الموهِمة، وإن حاول كدأبه التماسَ العذر لقائليها، حُسْنَ ظنٍّ منه بهم، واتهاماً لنفسه بالقصور عن درْك مراتبهم؛ من ذلك ما نراه في

60 روح المعاني 210/3، وواضح أن ما يفيد القول بوحدة الوجود في كلام ابن عربي أضعاف مضاعفة مما ينفي ذلك، ولذلك جعله الآلوسي أم وحدة الوجود وأباها وابنها وأخاها، وهنا نجد أنفسنا أمام تعارض وتقاطع مع ما يراه الدكتور البوطي من تبرئة ابن عربي تماماً من القول بوحدة الوجود بمعناها الفلسفي واستشهاده ببيتين له هما قوله:

وجدت وجوداً لم أجد ثانياً له وشاهدت ذاك الحق في كل صنعة

وطالب غير الله في الأرض كلها كطالب ماء من سراب بقيعة

69 السابق

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

تعليقه على ما نقلناه آنفاً بقوله: "وكان الأولى بحسب الظاهر عدم التعبير بمثل ذلك، ولكنْ للقوم أحوالٌ ومقامات لا تصل إليها أفهامنا، ولعل عذرَهم واضح عند المنصفين"[70].

والذي يجعلنا نميل إلى القطع برد الآلوسي القول بوحدة الوجود بمعناها الفلسفي، هو ما تشتمل عليه من مخالفات عقدية تمس جوهر التوحيد، فإنك لو رجعت إلى مفهوم وحدة الوجود لدى القائلين بها، ولا سيما ابن عربي ومن شاكله، فلن ترى سبيلاً إلى الجمع بين ما يعتقده الآلوسي من الذي يُمَسِّكُ بالكتاب والسنة وبين هذه العقيدة التي تخالف نصوص القرآن الصريحة ونصوص السنة الصحيحة. فوحدة الوجود عند ابن عربي تعني أن الحقيقة الوجودية واحدة، وأن الكثرة المشاهدة وهم من الحس الذي يفرق بين الذات والممكنات تفرقة حقيقية، وهذا، في نظره، هو العقل القاصر، أما الحقيقة فهي أنهما شيء واحد، والتفرقة بينهما اعتبارية. انظر: في التصوف الإسلامي: حسن الشافعي وأبو يزيد العجمي، ص129

ويؤكد هذا الرأي لدينا أن له في تفسير قوله تعالى "ما قدروا الله حق قدره" [الحج 74] كلاماً طويلاً نقض فيه وأبرم، ومنع وسلم، وانتهى فيه إلى قوله: "وبالجملة إن القول بأن حقيقة الواجب تعالى غير معلومة علماً اكتناهياً إحاطياً عقلياً أو حسياً مما لا شبهة عندي في صحته، وإليه ذهب المحققون حتى أهل الوحدة! والقول بخلاف ذلك المحكي عن بعض المتكلمين لا ينبغي أن يلتفت إليه أصلاً" 196/9

70 السابق

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بل إن الآلوسي ينفي قربة ممن يقول بوحدة الوجود، ذلك أنه إذ ناقش قضية التأويل وقال فيها كلاماً طويلاً خلص منه إلى أنه يميل إلى التأويل وعدم القول بالظواهر مع نفي اللوازم في بعض ما ينسب إلى الله تعالى مثل قوله سبحانه: (سنفرغ لكم أيها الثقلان) وقوله تعالى: (يا حسرة على العباد)، ذلك أنه يجعل الكلام في جميع ذلك خارجاً مخرج التشبيه لظهور القرينة، قال: "ولا أقول: الحجر الأسود من صفاته تعالى، كما قال السلف في اليمين، وأرى من يقول بالظواهر ونفي اللوازم في الجميع بينه وبين القول بوحدة الوجود على الوجه الذي قاله محققو الصوفية مثل ما بين سواد العين وبياضها" 476/8

ثم انظر إلى ما يراه ابن عربي من أن وجود المحدث هو عين وجود القديم

الحقيقة المحمدية

لعله من المتفق عليه أن شخصية الرسول محمد صلى الله عليه وسلم هي لب الحياة الصوفية ونقطة دائرتها، وهذا قاسم مشترك بين جميع الطرق والمدارس الصوفية، سنية وفلسفية. وقد مضى المتصوفة الأوائل على النهل من منبع النبوة الصافي والالتزام بما يمليه الشرع في ذلك، غير أن فرقة من أصحاب الشطحات الصوفية، ولا سيما البسطامي والحلاج، خرجت بهذا الأمر عن مساره، وظهر في كلامها حديث عن وحدة الوجود وما اتصل بها من حديث عن الحقيقة المحمدية أو الكلمة، كما في العقيدة النصرانية، ثم ما ترتب على ذلك من القول بوحدة الأديان، ومثل المبالغة في اتحاد بعض الصوفية بالحقيقة المحمدية طريقاً للاتحاد بالله[71].

والحقيقة المحمدية عند الحلاج تعني أن لمحمد صلى الله عليه وسلم حقيقتين، إحداهما كونه نوراً أزلياً كان قبل الأكوان، ومنه استمد كل علم وعرفان، والثانية حقيقته نبياً مرسلاً في زمان ومكان

[71] انظر: في التصوف الإسلامي 148

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

محدودين، وهو في الثانية يصدر في كل ما تحقق فيه من قول وعمل عن ذلك النور الأزلي القديم الذي صدر عنه واستمد منه غيره من الأنبياء السابقين عليه والأولياء اللاحقين. في التصوف الإسلامي 150

على أن القول بالحقيقة المحمدية اكتمل بنيانه واتضحت معالمه لدى شيخ الصوفية الأكبر الشيخ محيي الدين بن عربي الذي جعل منه نظرية فلسفية متكاملة بناها على أساس نظريته في وحدة الوجود، مقتضاها أن الحقيقة المحمدية هي أول المخلوقات وأنها مبدأ الخلق، فهي النور الذي خلقه الله قبل كل شيء وخلق منه كل شيء، وأنها صورة الإنسان الكامل الذي يجمع جميع حقائق الوجود مع كونه مصدر العلم الباطن وقطبَ الأقطاب، وأنها شيء ميتافيزيقي محض خارج حدود الزمان والمكان، أو هي الحق ذاته ظاهراً لنفسه في أول تعين من تعيناته في صورة العقل الحاوي لكل شيء[72].

أما عبارات ابن عربي في هذا المعنى فكثيرة، منها ما نقله عنه الشيخ يوسف النبهاني في جواهره من قوله في الفتوحات: "اعلم أيدك الله أن أصل أرواحنا روح محمد صلى الله عليه وسلم، فهو أول الآباء روحاً، وآدم أول الآباء جسماً، ..."[73] ومنها قوله الذي يفيد أن لمحمد صلى الله عليه وسلم نشأتين، وهو في الفتوحات أيضاً، إذ قال بعد حديثه عن منزلته صلى الله عليه وسلم: "ولما أعطي صلى الله عليه وسلم هذه المنزلة بين الماء والطين علمنا أنه الممد لكل إنسان كامل مبعوث بناموس إلهي أو حكمي، وأول ما ظهر في آدم حيث جعله الله خليفة عن محمد صلى الله عليه وسلم، فأمده بالأسماء كلها من مقام جوامع الكلم التي هي لمحمد صلى الله عليه وسلم فظهر

---

[72] فصوص الحكم 317-321

[73] جواهر البحار 1/ 190

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بعلم الأسماء كلها من اعترض على الله في وجوده، ورجح نفسه عليه، ثم توالت الخلائف في الأرض إلى أن وصل زمان وجود صورة جسمه لإظهار حكم منزلته باجتماع نشأتيه" جواهر البحار 191/1

وتظهر هذه التفرقة أيضاً في كلام ابن عربي في الفتوحات: "وكان محمد صلى الله عليه وسلم عين سابقة النبوة البشرية لقوله معرفاً إيانا: كنت نبياً وآدم بين الماء والطين"، وهو عين خاتم النبيين لقوله تعالى: ولكن رسول الله وخاتم النبيين، إلى أن قال: فالخضر وإلياس وعيسى من أمة محمد صلى الله عليه وسلم الظاهرة، ومن آدم إلى زمن بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم من أمته الباطنية، فهو النبي بالسابقة وهو النبي بالخاتمة، فظهر من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم أن السابقة عين الخاتمة في النبوة. جواهر البحار 205/1، فتقدم آدم على محمد إنما هو بوجوده الطيني ليس غير! على أن في الفص السابع والعشرين من فصوص الحكم، وهو فص حكمة فردية في كلمة محمدية من هذا الباب ما يطول نقله فليرجع إليه في موضعه، وقد أفاض أبو العلا عفيفي في تبيانه في تعليقاته على الفصوص.

ومع أنه لا يخفى كون عقيدة الحقيقة أمشاجاً من الفلسفات الأفلاطونية الحديثة والمسيحية واليهودية، ومن بعض أفكار الإسماعيلية الباطنية والقرامطة، (في التصوف الإسلامي 154) وأن جملة ما بنيت عليه من الآثار أحاديث موضوعة أو باطلة، إلا أنك تفاجأ بأن الآلوسي لا يستنكف عن ترديدها في تفسيره، بل يرى أن في الآثار ما يؤيدها! قال: وأفهم من كلام القوم- نفعنا الله تعالى بهم- أن جميع المخلوقات، علويها وسفليها، سعيدها وشقيها مخلوق من الحقيقة المحمدية صلى الله تعالى عليه وسلم، كما يشير إليه قول النابلسي قدس سره دافعاً ما يرد على الظاهر:

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

طه النبي تكونت من نوره كل الخليقة ثم لو ترك القطا

قال الآلوسي: وفي الآثار ما يؤيد ذلك، إلا أن الملائكة العلويين خلقوا منه عليه الصلاة والسلام من حيث الجمال، وإبليس من حيث الجلال، ويؤول هذا بالآخرة إلى أن إبليس مظهر جلال الله سبحانه وتعالى، ولهذا كان منه ما كان، ولم يجزع ولم يندم ولم يطلب المغفرة، لعلمه أن الله يفعل ما يريده، وأن ما يريده سبحانه هو ما تقتضيه الحقائق، فلا سبيل إلى تغييرها وتبديلها، واستشعر ذلك من ندائه بإبليس –ولم يكن اسمه من قبل– بل كان اسمه عزازيل، أو الحارث، وكنيته أبا مرة، ووراء ذلك ما لم يمكن كشفه. 232/1

ويردد الآلوسي هذا الأمر في مواضع شتى من تفسيره، وإن استخدم عبارات مختلفة، ففي كلامه على قوله تعالى: "وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين" يقول: وكونه صلى الله عليه وسلم رحمة للجميع باعتبار أنه عليه الصلاة والسلام واسطة الفيض الإلهي على الممكنات على حسب القوابل، ولذا كان نوره صلى الله عليه وسلم أول المخلوقات". وقد ساق الآلوسي خبرين هما: "أول ما خلق الله تعالى نور نبيك يا جابر"، و"الله تعالى المعطي وأنا القاسم". قال: وللصوفية قدست أسرارهم في هذا الفصل كلام فوق ذلك. 100/9

وحديث أولية نوره صلى الله عليه وسلم حديث موضوع كما نص عليه عدد من الحفاظ.

أما لدى كلامه على قوله تعالى: [وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة" [البقرة: 30] قال الآلوسي: ولا يخفى لطف الرب هنا مضافاً إلى ضميره صلى الله عليه وسلم بطريق الخطاب، وكأنّ في تنويعه والخروج من عامه إلى خاصه رمزاً إلى أن المقبل عليه بالخطاب له الحظ الأعظم والقسم الأوفر من الجملة المخبر بها، فهو صلى الله تعالى عليه وسلم، على الحقيقة الخليفة

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الأعظم في الخليقة، والإمام المقدم في الأرض والسماوات العلى، ولولاه ما خلق آدم، بل "ولا، ولا"، ولله تعالى در سيدي ابن الفارض حيث يقول عن لسان الحقيقة المحمدية:

وإني وإن كنت ابن آدم صورة فلي منه معنى شاهد بأبوتي 220/1

وقد جاء وصف النبي صلى الله عليه وسلم بالخليفة الأعظم في مواضع أخرى، منها كلامه على المقصود بالخليفة في قوله تعالى "إني جاعل في الأرض خليفة" إذ قال: وعند أهل الله تعالى المراد بالخليفة آدم، وهو عليه السلام خليفة الله تعالى وأبو الخلفاء والمجلى له سبحانه وتعالى، والجامع لصفتي جماله وجلاله، ولهذا جمعت له اليدان، وكلتاهما يمين، وليس في الموجودات من وسع الحق سواه، ومن هنا قال الخليفة الأعظم صلى الله تعالى عليه وسلم: "إن الله تعالى خلق آدم على صورته، أو على صورة الرحمن"، وبه جمعت الأضداد وكملت النشأة وظهر الحق، ولم تزل تلك الخلافة في الإنسان الكامل إلى قيام الساعة وساعة القيام، بل متى فارق هذا الإنسان العالم مات العالم، لأنه الروح الذي به قوامه، فهو العماد المعنوي للسماء، والدار الدنيا جارحة من جوارح جسد العالم الذي الإنسان روحه! ولما كان هذا الاسم الجامع قابل الحضرتين بذاته صحت له الخلافة وتدبير العالم، والله سبحانه الفعال لما يريد، ولا فاعل على الحقيقة سواه، وفي المقام ضيق، والمنكرون كثيرون، ولا مستعان إلا بالله عز وجل.222/1-223

وفي باب الإشارة في قوله تعالى "قل إني أمرت أن أكون أول من أسلم" [الأنعام 14] يرى الآلوسي أنه المراد بالأمر بذلك الأمر الكوني، أي قل إني قيل لي: كن أول من أسلم، فكنت. قال: "وذلك قبل ظهور هذه التعينات، وإليه الإشارة بما شاع من قوله صلى الله عليه وسلم: "كنت نبياً وآدم بين الماء والطين"، فأول روح ركضت في ميدان الخضوع والانقياد والمحبة روح نبينا صلى الله عليه وسلم، وقد أسلم نفسه لمولاه بلا واسطة، وكل إخوانه الأنبياء عليهم الصلاة

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

والسلام إنما أسلموا نفوسهم بواسطته عليه الصلاة والسلام، فهو صلى الله عليه وسلم المرسل إلى الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام في عالم الأرواح، وكلهم أمته وهم نوابه في عالم الشهادة، ولا يتافي ذلك أمره عليه الصلاة والسلام باتباع بعضهم في النشأة الجسمانية لأن ذلك لمحض استجلاب المعتقدين بأولئك البعض على أحسن وجه. روح 132/4

ولست أدري ما الذي يجعل الآلوسي يسوق هذا الحديث وهو خِرِّيتُ الأسانيد والمتون، فإن هذا الحديث بَيِّنُ الوضع، كما بينه عدد من أجلة العلماء. ومثله حديث: كنت نبياً ولا آدم ولا ماء ولا طين، وجملة من الأحاديث التي بنى عليها القائلون بالحقيقة المحمدية نظريتهم. قال ابن تيمية في هذا الحديث: "لا أصل له، لا من نقل ولا من عقل، فإن أحداً من المحدثين لم يذكره، ومعناه باطل، فإن آدم عليه السلام لم يكن بين الماء والطين قط، فإن الطين ماء وتراب، وإنما كان بين الروح والجسد. ثم إن هؤلاء الضُّلال يتوهمون أن النبي صلى الله عليه وسلم كان حينئذ موجوداً، وأن ذاته خلقت قبل الذوات، ويستشهدون لذلك بأحاديث مفتراة، مثل حديث فيه أنه كان نوراً حول العرش، فقال: يا جبريل! أنا كنت ذلك النور، ويدعي بعضهم أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحفظ القرآن قبل أن يأتيه به جبريل!" انظر سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة، المجلد الأول ص 473-474. الحديث رقم 302.

الآلوسي ونقد التصوف

من الإنصاف أن نذكر أن تأثر الآلوسي بالفكر الصوفي كان من باب تأثر العلماء ذوي البصر الثاقب، ففيما نراه ينظر للصوفية نظرة إجلال وإكبار وينقل عنهم ويقدمهم في فهم القرآن على

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

غيرهم، كما مضى بيانه، فإننا لا نعدم في تفسيره وغيره من كتبه انتقاداً لبعض آرائهم، أو تنبيهاً على بدعهم، أو تحذيراً من سفاهات بعضهم.

والحق أن انتقاد الآلوسي للصوفية منصب على من يراهم من جهلتهم، ولا سيما متصوفة زمانه، كما يبدو واضحاً في كلامه على قوله تعالى: (يقولون سيغفر لنا)، إذ قال: "وهذا حال كثير من متصوفة زماننا، فإنهم يتهافتون على الشهوات تهافت الفراش على النار، ويقولون: ذلك لا يضرنا لأنا واصلون، ..."[74]. وكذلك في قوله: "إن كثيراً من جهلة المتصوفة يطلقون القشر على علم الشريعة امتهاناً له، واللب على علم التصوف الباحث عن المقامات والأحوال والمحبة والعشق وما أشبه ذلك، تعظيماً له، **وأنت تعلم أن امتهان علم الشريعة كفر**"[75]. والآلوسي بهذا يذكرنا برد الجنيد على رجل ذكر المعرفة فقال: "أهل المعرفة بالله يصلون إلى ترك الحركات من باب البر والتقوى إلى الله تعالى"، فقال الجنيد: "إن هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال، وهذه عندي عظيمة، والذي يسرق ويزني أحسن حالاً من الذي يقول هذا، وإن العارفين بالله أخذوا الأعمال عن الله وإليه رجعوا فيها، ولو بقيت ألف عام لم أنقص من أعمال البر ذرة، إلا أن يحال بي دونها، وإنه لأوكد في معرفتي وأقوى في حالي"[76].

على أن الآلوسي لم ينفك منبهاً على هذه القضية الخطيرة، أعني القول بمخالفة علم الحقيقة لعلم الشريعة، فتراه مجتهداً في نقل ما يبطل ذلك من كلام كبار الصوفية، كنقله عن العارف بالله الشيخ عبد الوهاب الشعراني قوله: "وأما زبدة علم التصوف الذي وضع القوم فيه رسائلهم، فهو

74 انظر: جهود أبي الثناء الآلوسي في الرد على الرافضة ص 107

75 الفيض الوارد، ص 227

76 دراسات في التصوف الإسلامي 301

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

نتيجة العمل بالكتاب والسنة"، قال الآلوسي: "وزعم بعضهم أن أحكام العلم الباطن وعلم الحقيقة مخالفة لأحكام الظاهر وعلم الشريعة، **وهو زعم باطل عاطل وخيال فاسد كاسد...**"[77]. بل إنه رحمه في تفسيره الإشاري لقوله تعالى: "وينهى عن الفحشاء والمنكر" قال: والفحشاء الاستهانة بالشريعة! 493/7

وفي تعليق الآلوسي على حديث يكثر دورانه عند الصوفية، وقد جاء في إحياء علوم الدين للغزالي بلفظ: قال الله تعالى: "لم يسعني سمائي ولا أرضي ووسعني قلب عبدي المؤمن اللين الوادع"، كما جاء في الرشدة لصدر الدين القونوي بلفظ: "ما وسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي المؤمن التقي النقي الوادع"، نراه، وإن بسط القول في أن القلب المقصود هنا ليس هو البضعة الصنوبرية، التي هي "عند كل عاقل أحقر من حيث الصورة أن تكون محل سره جل وعلا، فضلاً عن أن تسعه سبحانه"، فإنه يهتبل هذه المناسبة لنفي الحلول والاتحاد الذي يتشبث به بعض المتصوفة، فيقول: "ومعنى وسع ذلك للحق جل وعلا على ما في مسلك الوسط الداني كونه مظهراً جامعاً للأسماء والصفات **على وجه لا ينافي تنزيه الحق سبحانه من الحلول والاتحاد والتجزئة وقيام القديم بالحادث ونحو ذلك من الأمور المستحيلة عليه تعالى شأنه**".

ولا يكتفي الآلوسي بهذا، بل يتعقب هذا الخبر من جهة الحديث، فيقول: "لكن أن يعلم أن هذا الخبر وإن استفاض عند الصوفية قدست أسرارهم، إلا أنه قد تعقبه المحَدِّثون، فقال العراقي: لم أر له أصلاً"[78]. ثم ساق كلاماً لابن تيمية مفاده أن هذا الحديث مذكور في الإسرائيليات، وأنه ليس له إسناد معروف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

---

77 روح المعاني 311/8

78 روح المعاني 521/8

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وبعد أن بسط الآلوسي القول في مبحث الطمأنينة، في تفسير قوله تعالى (ولكن ليطمئن قلبي) [البقرة: 260] ، وخلص إلى أن الأولى أن يقال، وهو من كلام أهل الذوق، إن ثمة فرقاً بين مقام النبوة ومقام الصديقية، وإن لمقام النبوة طمأنينة وعدم طمأنينة بحسبه، ولمقام الصديقية كذلك، وإن طمأنينة مقام النبوة كانت لمحمد صلى الله عليه وسلم فثبت له بها الفضل على سائر إخوانه الأنبياء، وطمأنينة مقام الصديقية لصِدِّيقِيه، فثبت لهم الفضل على سائر الصديقين من أمم سائر الأنبياء، ولم يثبت لهم بوجدانهم طمأنينتهم الفضيلة على الأنبياء عند فقدانهم طمأنينتهم، "لأن ما فقدوه من الطمأنينة غير ما وجده الصديقون منها، لأنهم إنما يفقدون الطمأنينة اللائقة بمقام النبوة، والصديقون لم يجدوا مثل تلك الطمأنينة، وإنما وجدوا طمأنينة لائقة بمقام الصديقين"[79]، ذكر أن بعضاً من المتصوفة كجهلة الشيعة "زعموا أن أولياء هذه الأمة وصديقيهم أعلى كعباً من الأنبياء ولو نالوا مقام الصديقية، محتجبين بما روي عن الإمام الرباني سيدي وسندي عبد القادر الكيلاني قدس سره أنه قال: يا معاشر الأنبياء الفرق بيننا وبينكم بالألقاب وأوتينا ما لم تؤتوه، وببعض عبارات للشيخ الأكبر قدس سره تنطق بذلك"[80]، ثم بين، رحمه الله، "أن التزام ذلك والقول به خرق لإجماع المسلمين، ومصادم للأدلة القطعية على أفضلية الأنبياء على سائر الخلق أجمعين، **ويوشك أن يكون القول به كفراً، بل قد قيل به**"[81]، وقفَّى على ذلك بأن ما روي عن الشيخ الكيلاني لم يثبت نقله في كتاب يعول عليه، وأن ما يُعزى للشيخ الأكبر تعارضُه عباراتٌ له أُخَر.

79 27/2

80 27/2

81 27/2

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بل إن الآلوسي أفرد مقامة من مقاماته، وهي سجع القُمرية في ربع العمرية، وقد بناها بناء قصصياً رمزياً ونحا فيها منحى صوفياً، وفيها عرض كثيراً من الأخلاق الاجتماعية السيئة، والعادات الفاسدة في المجتمع الصوفي البكتاشي، وهم طائفة مغالية في التصوف، وفرقة من الفرق الهدامة في تاريخ الإسلام[82]. وأنت إذا شفعت هذا بما يستفاد من بعض ما في كتب الآلوسي من نصوص أخرى تفيد امتناعه عن التصريح بما يعلم من مخازي بعض من ينتسبون للتصوف على المجاز من غير حقيقة، خشية سماع نهيق حمر جهلة المتصوفة[83]، وقفتَ على مدى انتقاده عليهم واستيائه منهم.

ولك أن تضيف إلى ما تقدم كلامه في مبحث دخول الملائكة على المؤمنين من كل باب، ذلك أن الفخر الرازي يرى أن هذا الدخول يمكن أن يكون من وجهين، أحدهما: ما يتفق مع ما قال ابن عباس من أن للمؤمنين خيمة من درة مجوفة طولها فرسخ، وعرضها فرسخ، لها ألف باب، مصاريعها من ذهب يدخلون عليهم الملائكة من كل باب يقولون لهم "سلام عليكم بما صبرتم". والثاني: ما يوافق ما قال أبو بكر الأصم: من كل باب من أبواب البر كباب الصلاة وباب الزكاة وباب الصبر. قال الرازي: ... وأما إن حملناه –أي دخول الملائكة– على الوجه الثاني، فتفسير الآية أن الملائكة طوائف، منهم روحيون ومنهم كروبيون. فالعبد إذا راض نفسه بأنواع الرياضات، كالصبر والشكر والمراقبة والمحاسبة، ولكل مرتبة من هذه المراتب جوهر قدسي وروح علوي يختص بتلك الصفة مزيد اختصاص، فعند الموت إذا أشرقت تلك الجواهر القدسية تجلت فيها من كل روح من الأرواح السماوية ما يناسبها من الصفة المخصوصة بها، فيفيض عليها من ملائكة الصبر كمالات مخصوصة نفسانية لا تظهر إلا في مقام الصبر، ومن ملائكة الشكر كمالات روحانية لا

82 ذكرى أبي الثناء 67

83 غرائب الاغتراب 75.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

تتجلى إلا في مقام الشكر، وهكذا القول في جميع المراتب. وبعد أن نقل الآلوسي في تفسيره هذا الوجه قال: وتعقبه أبو حيان بأنه كلام فلسفي لا تفهمه العرب، ولا جاءت به الأنبياء، فهو كلام مطروح لا يلتفت إليه المسلمون. ثم قفى بقوله: "وأنت تعلم أن مثل هذا كلام كثير من الصوفية". روح المعاني 138/7 ولا يخفى ما فيه من الحط من كلام هذا الكثير من الصوفية.

ومن هذا أن الآلوسي لا يبالي برد ما لا يرى له وجهاً وإن ورد عن أكابر المتصوفة، ودونك تعجبه مما ذهب إليه الشعرائي فيما يتعلق بعصمة الملائكة، إذ قال: "ومن العجيب أن مولانا الشعرائي —وهو من أكابر أهل السنة، بل من مشايخ أهل الله تعالى– نقل عن شيخه الخواص أنه خص العصمة بملائكة السماء، معللاً له بأنهم عقول مجردة بلا منازع ولا شهوة، وقال: إن الملائكة الأرضية غير معصومين، ولذلك وقع إبليس فيما وقع، إذ كان من ملائكة الأرض الساكنين بجبل الياقوت بالمشرق عند خط الاستواء، فعليه لا يبعد الاعتراض ممن كان في الأرض والعياذ بالله تعالى، ويستأنس له بما ورد في بعض الأخبار أن القائلين كانوا عشرة آلاف، نزلت عليهم نار فأحرقتهم، وعندي أن ذلك غير صحيح. 223/1

وللآلوسي إلى جانب ذلك تلميحات كثيرة يغمز فيها جهلة المتصوفة وينتقد ما يصدر عنهم مما لا يليق، ففي تعليقه على وجل القلوب لدى ذكر الله تعالى يقول: وأكثر مشايخ زماننا يرقصون عند سماع الذكر، فما أدري أن منشأ رقصهم عن وجل منه تعالى أم عن طمأنينة؟ وسيظهر ذلك يوم تبلى السرائر وتظهر الضمائر. وواضح لكل ذي مبصرتين ما فيه من العتاب الخفي، ولا سيما أن الآلوسي شديد الاعتراض على غناء الصوفية وما يصاحبه من رقص مخل بالمروءة، وقد أفاض في بحث هذه المسألة لدى كلامه على قوله تعالى: "ومن الناس من يشتري لهو الحديث" [لقمان: 6]

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ولئن كان الآلوسي قد سوغ ما وقع في كلام بعض المتصوفة من الكناية عن الذات الإلهية بنحو نُعْمٍ وليلى كما مضى، وعد ذلك من قبيل الاستعارة التمثيلية الجائزة في حقه سبحانه وتعالى، إلا أنه لا يقبل مثل هذا الكلام من جهلة المتصوفة، بل يرجع ويعده من باب الإلحاد في أسمائه عز وجل، فبعد أن ذكر ما عمت به البلوى من انتشار الغناء والسماع في سائر البلاد والبقاع، إذ قال: "وأشنع من ذلك ما يفعله أبالسة المتصوفة ومردتُهم، ثم إنهم قبحهم الله تعالى إذا اعترض عليهم بما اشتمل عليه نشيدهم الباطل يقولون: نعني بالخمر المحبة الإلهية، وبالسكر غلبتها، وبمية وليلى وسعدى مثلاً المحبوب الأعظم، وهو الله عز وجل" قال: وفي ذلك من سوء الأدب ما فيه، (ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها، وذروا الذين يلحدون في أسمائه). روح 72/11 ثم أعقب ذلك بقوله: "ومن السماع المحرم سماع متصوفة زماننا، وإن خلا عن رقص، فإن مفاسده أكثر من أن تحصى، وكثير مما يسمعونه من الأشعار من أشنع ما يتلى، ومع هذا يعتقدونه قربة، ويزعمون أن أكثرهم رغبة فيه أشدهم رغبة أو رهبة، قاتلهم الله أنى يؤفكون". روح 74/11

ونختم بعبارة للآلوسي نسوقها بنصها وفصها لإمعانها في وصف هذا النوع من الصوفية وبيان موقفه منهم، وذلك في كلامه على قوله تعالى: "إنْ أولياؤُهُ إلا المتقون" [الأنفال: 34] إذ قال بعد أن بين المراد بالولي: "وغالب الجهلة اليوم على أن الولي هو المجنون، ويعبرون عنه بالمجذوب، صدقوا، ولكن عن الهدى، وكلما أطبق جنونه وكثُر هذيانه واستقذرت النفوس السليمةُ أحوالَه كانت ولايته أكملَ وتصرفُه في ملك الله تعالى أتمّ، وبعضهم يطلق الولي عليه وعلى من ترك الأحكام الشرعية ومرق من الدين المحمدي وتكلم بكلمات القوم وتزيا بزيهم، وليس منهم في عير ولا نفير، وزعم من أجهد نفسه في العبادة محجوباً، ومن تمسك بالشريعة مغبوناً، وأن هناك باطناً يخالف الظاهر، إذا هو عُرف انحل القيد ورفع التكليف وكملت النفس:

وألقت عصاها واستقرّ بها النوى كما قرَّ عيناً بالإياب المسافر

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ويسمون هذا المرشدَ، صدقوا، ولكن إلى النار، والشيخَ، صدقوا، ولكن النجديّ، والعارفَ، صدقوا، ولكن بسباسب الضلال، والموَحِّدَ، صدقوا، ولكن للكفر والإيمان"[84]. بل لقد وصفهم الآلوسي بالكفرة الفجرة، إذ ذكر بعد ذلك كلمة للغزالي في هذا النوع من الصوفية، فقال: "وقد ذكر مولانا حجة الإسلام الغزالي هذا النوع من الكفرة الفجرة، وقال: إن قتل واحد منهم أفضل عند الله من قتل مائة كافر، وكذا تكلم فيهم الشيخ الأكبر قدس سره في الفتوحات بنحو ذلك"[85].

وهذه القسوة في وصف هذا الضرب من المتصوفة ليست مقصورة على هذا الموضع، بل لقد كررها الآلوسي في غيرما سياق، إذ وصفهم بالملحدين، وسوى بينهم وبين البراهمة. وذلك في كلامه على قوله تعالى: "ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده" حيث يرى أن الآية دليل على أن النبوة عطائية، وأن هذا هو المذهب الحق، قال: "ويرد بها أيضاً على بعض المتصوفة القائلين بأنه لا حاجة للخلق إلى إرسال الرسل عليهم السلام" بدعوى أن الرسل سوى الله تعالى وأن كل ما سواه سبحانه حجاب عنه جل شأنه، فالرسل حجاب عنه تعالى وكل ما هو حجاب لا حاجة للخلق، قال الآلوسي: "وهذا جهل ظاهر، ولعمري إنه زندقة وإلحاد، وفساده مثل كونه زندقة في الظهور، ويكفي في ذلك منع الكبرى القائلة بأن كل ما سواه سبحانه إلخ، فإن الرسل وسيلة إلى الله تعالى والوصول إليه عز وجل لا حجاب، وهل يقبل ذو عقل أن نائب السلطان في بلاده حجاب عنه؟ وهب هذا القائل أمكنه الوصول إليه سبحانه بلا واسطة، بقوة الرياضة والاستعداد والقابلية، فالسواد الأعظم الذين لا يمكنهم ما أمكنه كيف يصنعون؟" ثم قال بعد هذا التقريع: "وممن ينتظم في سلك هؤلاء الملحدين البراهمة، فإنهم ايضاً نفوا النبوة...". 338/7

84 روح المعاني 189/5

85 روح المعاني 189/5

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المبحث الثالث: الآلوسي وابن عربي

كلمة في ابن عربي[86]

لعل رجلاً لم يختلف الناس فيه اختلافهم في ابن عربي صاحبِ الفتوحات المكية وفصوص الحكم، فهم فيه على الدهر بين قادح ومادح، ومحقر ومُجِلّ، ومكفّر ومقدّس. وما ذاك إلا لما تزخر به كتبه ورسائله، ولا سيما الفصوص، من كلام لم ير كثير من الأجِلّة في ظاهره إلا الكفر البواح، وان اجتهد آخرون في تأويله وصرفه عن ظاهره، وحملوه وجوهاً من التأويل يُسيغها العقل حيناً، ويأباها أحياناً[87]. ففيما يقول فيه العز بن عبد السلام: "هو شيخ سوء كذاب، يقول بقدم العالم ولا يُحرّم فرجاً"[88]، ويرى ابن تيمية أنه وأمثاله من الملاحدة[89]، فإننا نجد من يؤلف في مدحه

---

86 هو محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن عبد الله الحاتمي.

64 حتى إنك لتجد عالماً كالبوطي مثلاً، وناهيك به في الانتصار للتصوف، وإن كان يحاول الابتعاد عن هذه التسمية، يقر بأن كتب ابن عربي مشتملة على كلام يستوجب الكفر، وعبارته في ذلك: "أما أن يكون في كتب ابن عربي كلام كثير يخالف العقيدة الصحيحة ويستوجب الكفر، فهذا ما لا ريبة ولا نقاش فيه". إلا أنه يخالف ابن تيمية في تكفير ابن عربي. انظر: السلفية مرحلة زمنية مباركة لا مذهب إسلامي، ص 204 حاشية رقم 1. وكان الشيخ محمد عبده يقول إن التفسير المطبوع في مجلدين المنسوب إلى الشيخ محيي الدين بن عربي هو للكاشاني الباطني. وقد ذكر الشيخ محمد رشيد رضا أن بعض العلماء يقولون إن الفتوحات المكية والفصوص أشهر مصنفات الشيخ محيي الدين فيها كثير من دسائس الباطنية، فإن لم يكن كذلك فهو من أكبر زعماء الباطنية أو أكبرهم على الإطلاق. انظر: تاريخ الأستاذ الإمام، الجزء الأول، القسم الأول، ص 116.

88 الفتوحات المكية 17/1

89 وذلك في قوله عن الحيرة: "وإنما مدحها طائفة من الملاحدة، كصاحب الفصوص ابن عربي وأمثاله من الملاحدة، الذين هم حيارى، فمدحوا الحيرة وجعلوها أفضل من الاستقامة"، انظر: مجموع الفتاوى 384/11-385، وللوقوف على من ساء ظنه في ابن عربي ينظر كتاب برهان الدين البقاعي الموسوم بمصرع التصوف أو تنبيه الغبي إلى تكفير ابن عربي.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

والثناء عليه، كالشيخ عبد الغني النابلسي، كما نرى الشيخ الصوفي عبد الله الرومي البوسني يصفه بـ "الشيخ الكامل، والخير الفاضل، خاتم الولاية الخاصة المحمدية، كاشف الحجب العزية عن وجه الأحدية، مرتب صفوف الأرواح في العوالم الروحية، مكمل جسوم الأولياء في العوالم الخلقية"[90].

موقف الآلوسي من ابن عربي في روح المعاني

يلوحُ للقارئ غير المتعمق لروح المعاني أن ابن عربي قد نزل من نفس الآلوسي أحسن منزل، ووطئ من قلبه أكرم موطئ، ذلك أن الآلوسي كثيراً ما يرجع إليه في تفسيره، ويستشهد بأقواله وإن أبعد فيها النُّجعةَ وجاء بالعجب العُجاب، ويترجمه بالشيخ الأكبر، متبعاً ذلك بقول: "قدس سره". وقد وصف خطه بالشريف[91]، ناهيك بما يخلع عليه من أوصاف التعظيم والإجلال نحو: مولانا[92]، وسيدي، وغيرها.

ويبدو واضحاً أن الآلوسي قد اطلع اطلاعاً معمقاً على كثير من كتب ابن عربي، فهو يحيل إلى تفسيره الموسوم بإيجاز البيان في الترجمة عن القرآن[93]، وإلى فصوصه وسواها من كتبه ككتاب المعرفة[94]، وكتاب القربة[95]، وغيرها. بل ربما نقل عن ابن عربي من غير إحالة، كما يظهر في كلامه على قوله تعالى: "ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين"

90 التصوف الإسلامي، ص 391-392، وللوقوف على أقوال مادحيه، انظر: جامع كرامات الأولياء 161/1 وما بعدها.

91 روح المعاني 32/12

92 روح المعاني 366/2

93 روح المعاني 32/12

94 روح المعاني 209/3

95 روح المعاني 167/6

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

[هود:118]، حيث نجد للآلوسي في تفسيره الإشاري كلاماً يكاد يكون مطابقاً لما جاء في التفسير المنسوب لابن عربي، من غير عزو ولا إشارة[96].

الفتوحات المكية

على أن كتاب الفتوحات حظي بالقسط الأكبر والنصيب الأوفر من النظر فيه والنقل عنه والإحالة عليه، بل إن الآلوسي يطلب من القراء الرجوع إليه، لأنه يرى أن العارفين، وهم المتصوفة من أمثال ابن عربي كما هو واضح من السياق، أعرف بالله تعالى منه، وإني لسائق لك ما قاله في كلامه على لفظ الجلالة وصفاً لما قاله ابن عربي في الفتوحات، مما يخفى وجهه على الخاصة فضلاً عن العامة، ولا يدركه إلا العارفون على حد قول الآلوسي نفسه إذ يقول: "وقد أطال الشيخ قدس سره الكلام في الفتوحات عن أسرار حروفه وأتى بالعجب العجاب، وفي ظهور الألف تارة وخفائها أخرى، وسكون اللام أولاً وتحركها ثانياً، والختم باطناً بما بدأ به ظاهراً، واشتمال الكلمة على متحرك وساكن وصالح بأن يظهر بأحد الأمرين، إشارات لا تخفى على العارفين، **فارجع إلى كتبهم فهم أعرف بالله تعالى منا**، وسبحان من احتجب بنور العظمة حتى تحيرت الأفهام في اللفظ الدال عليه، إذ انعكست له من تلك الأنوار أشعة بهرت أعين المستبصرين، فلم يستطيعوا أن يمعنوا النظر فيه وإليه، والقصور في القابل لا في الفاعل". وقد قفى عليها بالاستشهاد ببيتي ابن الفارض:

توهمتُ قِـدماً أنَّ ليلى تبرقَعَتْ ... وأنَّ حجاباً دونَها يمنعُ اللَّثما

فلاحتْ فلا واللهِ ما ثـم حاجبٌ ... سوى أن طرْفي كان عن حُسنها أعمى[97]

---

73 انظر: روح المعاني 361/6، وتفسير ابن عربي 312/1، على اعتبار صحة نسبته، وفي ذلك شك، وقد ذكرنا فيما فرّط من قول أن الشيخ محمد عبده كان يرى أن هذا التفسير إنما هو للكاشاني الباطني.

97 روح المعاني 61/1

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ويظهر هذا على نحو أوضح في تعليق الآلوسي على كلام لابن عربي في توجيه قوله تعالى: "لكم فيها منافع إلى أجل مسمى ثم محلها إلي البيت العتيق" [الحج: 33]، ذلك أنه المقصود بالبيت العتيق ما يليه، لأن النحر بمنى، قال: "وجُعلت محلاً للقرابين على ما ذكر الشيخ الأكبر محيي الدين قُدس سره لأنها من بلوغ الأمنية، ومن بلغ المنى المشروع فقد بلغ الغاية. وفي نحر القرابين إتلاف أرواح عن تدبير أجسام حيوانية لتتغذى بها أجسام إنسانية، فتنظر أرواحها إليها في حال تفريقها، فتدبرها إنسانية بعدما كانت تدبرها إبلاً أو بقراً وهذه مسألة دقيقة لم يفطن لها إلا من نور الله تعالى بصيرته من أهل الله تعالى" وقد علق الآلوسي على هذا الكلام بقوله: وتعقله مفوض إلى أهله، فاجهد أن تكون منهم. 153/9

ختم الولاية المحمدية

قال الآلوسي:

وقد ذكر الشيخ الأكبر قدس سره في معراجه ما يحير الألباب، ويقضى منه العجب العجاب، ولم يستبعد ذلك منه على أنه ختم الولاية المحمدية عندهم. ومن عجائب ما اتفق في زماننا أن رجلاً يدعى بعبد السلام نائب القاضي في بغداد، وكان جسوراً على الحكم بالباطل، شرع في ترجمة معراج الشيخ قدس سره بالتركية مع شرح بعض مغلقاته، ولم يكن من خبايا هاتيك الزوايا، فقبل أن يتم مرامه ابتلي والعياذ بالله تعالى بآكلة في فمه فأكلته إلى أذنيه فمات وعرج بروحه إلى حيث شاء الله تعالى، نسأل الله سبحانه العفو والعافية في الدين والدنيا والآخرة.

(؟؟)

نماذج من موافقات الآلوسي لابن عربي والصوفية ودفاعه عنه

حديث الأقطاب والأوتاد

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يسوق الآلوسي كلام ابن عربي في الفتوحات لدى كلامه عن الولي، ويذكر أن فيها تقسيم الأولياء إلى عدة أقسام منها الأقطاب والأوتاد والأبدال والنقباء والنجباء، ويجتهد في الانتصار للأثر الوارد في هذا التقسيم فيذكر أنه ورد مرفوعاً وموقوفاً من حديث عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وأنس وحذيفة بن اليمان وعبادة بن الصامت وابن عباس وعبد الله بن عمر وابن مسعود". وهذا الحديث، وإن كان أنكره جماعة منهم الإمام أحمد وابن الجوزي والحافظ الذهبي وابن تيمية وابن القيم وغيرهم، إلا أن الآلوسي لا يجد مانعاً من قبوله والقول بمقتضاه، قال: "وقد ذكر ذلك الجلال السيوطي في رسالة مستقلة له وشيد أركانه، وأنكره، كما قدمنا، بعضُهم، والحق مع المثبتين، وأنا والحمد لله تعالى منهم"[98]. ولم يقف الآلوسي هنا كدأبه، بل يتابع ليذكر بقية الأقسام التي ذكرها ابن عربي مما هو دون ذلك فيقول: "والأئمة والحواريون والرَّجَبيون والختم والملامية والفقراء وسقيط الرفرف بن ساقط العرش والأمناء والمحدثون إلى غير ذلك"، قال: وعد الشيخ الأكبر قدس سره منهم الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والبيان الذي في الآية صادق عليهم عليهم السلام على أتم وجه"[99].

ولما كان ابن عربي قد تعرض لهجوم من خصومه بسبب ما جاء من أقواله في هذا السياق مما يلوح منه تفضيل الأولياء على بعض الأنبياء، فإن الآلوسي ينبري للدفاع عنه، على طريقته في ذلك، وهي تأويل أقواله، وتجريدها مما قد ينافي الشرع، يقول: "ونسب إليه رضي الله تعالى عنه القول بتفضيل الولي على النبي والرسول، وخاض فيه كثير من المنكرين حتى كفّروه، وحاشاه،

98 روح المعاني 166/6، ولم يزل هذا الحديث، ولا سيما حديث ذكر الأبدال دون سواه، مدار رد وقبول، حتى إن الشيخ ناصر الدين الألباني الذي وقف نفسه على الاشتغال بتخريج الأحاديث، وإن كان ذكر هذا الحديث في الضعيفة، عند تضعيفه لأحاديث الابدال، إلا أنه ذكر أن لهذه الأحاديث أصلاً، لأنها جاءت في كلام كثير من السلف، فليرجع إليه، والله أعلم بالصواب.

99 روح المعاني 166/6، وانظر: الولاية والنبوة عند الشيخ الأكبر محيي الدين بن العربي، ص 137 وما بعدها.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بسبب ذلك، وقد صرّح في غير موضع من فتوحاته وكذا من سائر تأليفه بما ينافي هذا القول حسبما فهمه المنكرون"[100]، ثم نقل من كلامه ما يؤيد ذلك، ذاكراً أن الشعراني نقل عن ابن عربي قوله: "فتح لي قدر خرم إبرة من مقام النبوة تجلياً لا دخولاً فكدت أحترق". ويخلص الآلوسي من هذا إلى القول بأنه "ينبغي تأويل جميع ما يوهم القول بذلك كأخباره في كتابه التجليات وغيره باجتماعه ببعض الأنبياء عليهم السلام وإفادته لهم من العلم ما ليس عندهم، وكقول الشيخ عبد القادر الجيلي قدس سره، وقد تقدم: يا معاشر الأنبياء أوتيتم الألقاب وأوتينا ما لم تؤتوه، إلى غير ذلك"[101]، وصولاً إلى تقرير "أن **اعتقاد أفضلية ولي من الأولياء على نبي من الأنبياء كفر عظيم وضلال بعيد**"[102].

رؤية الأولياء

ولا يرى الآلوسي أيضاً ما يمنع من جواز رؤية بعض الأولياء في وقت واحد في عدة مواضع كما يقرر الصوفية، وذلك لقوة تجرد أنفسهم وغاية تقدسها فتمثل وتظهر في موضع وبدنها الأصلي في موضع آخر، ويستشهد ببيت ابن الفارض:

لا تقل دارها بشرقي نجد كل نجد للعامرية دار

ثم يقول: "وهذا أمر مقرر عند السادة الصوفية مشهور فيما بينهم، وهو غير طيّ المسافة، وإنكار من ينكر كلاً منهما عليهم مكابرة لا تصدر إلا من جاهل أو معاند"[103]. ثم يمضي في ذكر بعض الشواهد لما قرره كرؤية إبراهيم بن أدهم بالبصرة في يوم التروية ورؤيته في مكة في اليوم

---

100 السابق

101 روح المعاني 167/6

102 السابق، نفس الصفحة

103 روح المعاني 14/12

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

نفسه. وجعل من هذا القبيل رؤية النبي صلى الله عليه وسلم موسى يصلي في قبره عند الكثيب الأحمر، ورؤيته إياه في السماء، مع استبعاد احتمال أن يكون موسى قد عرج بجسده إلى السماء، وعليه أيضاً حَمَل لقاء النبي عليه السلام جماعة من الأنبياء في السماوات مع أن قبورهم في الأرض، وعدم القول بأنهم نقلوا منها إليها. ولا يقف المطاف بشيخنا هنا، بل نراه يحمل على ذلك أيضاً ما جاء من أحاديث تفيد سجود الشمس تحت العرش بلا واسطة، ويرى أن ذلك لا ينافي سير هذا النجم المعروف وعدم سكونه حسبما يدعيه أهل الهيئة وغيرهم، وأن ذلك يكون إذا غربت الشمس "وتجاوزت الأفق الحقيقي وانقطعت رؤية سكان المعمور من الأرض إياها"[104]. ويرى أنه يمكن أن يُخَرَّجَ على هذا الطراز أيضاً ما يُحكى من أن الكعبةَ كانت تزورُ واحداً من الأولياء، "بأن يقال إن الكعبة، حقيقةً، غيرُ ما يعرفُه العامة، وهي باعتبار تلك الحقيقة تزور، والناس يشاهدونها في مكانها أحجاراً مبنية"[105]. وهنا يستشهد الآلوسي بكلام لابن عربي في هذا المعنى، فيقول: "وقد ذكر الشيخ الأكبر قدس الله سره في الفتوحات كلاماً طويلاً ظاهراً في أن لها حقيقة غير ما يعرفه العامة، وفيه أنه كان بينه وبينها زمان مجاورته مراسلات وتوسلات ومعاتبة دائمة، وأنه دوّن بعض ذلك في جزء سماه تاج الوسائل ومنهاج الرسائل"[106].

81 روح المعاني 15/12، وحديث سجود الشمس تحت العرش رواه الشيخان وبعض أصحاب السنن والمسانيد والتفسير المأثور والبيهقي في الأسماء والصفات، بألفاظ متقاربة ولكنها غير متفقة، ورواه غيرهم بزيادات مختلفة. والحديث من أكثر الأحاديث إشكالاً لما فيه من مخالفة لما بات معلوماً في علم الهيئة من أن الشمس لا تغيب عن الأرض بالكلية، وإنما تغيب عن جهة وتطع على أخرى، فهي ثابتة في فلكها. وقد استشكل هذا الحديث نفر من أجلة العلماء، وأنكروا منه سجود الشمس تحت العرش، واحتجابها عن الدنيا، وكانت أجوبتهم عن السجود أقوى من إجابتهم عن الاحتجاب، فلم يأتوا فيه بما يمكن أن تطمئن له النفس أو يركن له العقل، أما الآلوسي فقد قال فيه ما رأيت، وقد قال فيه محمد رشيد رضا في هذه المسألة: "ولم أره تجرد من عقله واستقلاله العلمي وأثبت عدة خرافات خلط فيها بين تخيلات الفلاسفة والصوفية والمبتدعة كما فعل في هذه المسألة، عفا الله عنه". انظر: مجلة المنار: 791/32.

105 السابق

106 السابق

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

والآلوسي وإن كان يتوقف في بعض ما يثبته الصوفية للأولياء من نشر الزمان كما يظهر من قوله: "ولهم في ذلك حكايات عجيبة والله أعلم بصحتها، ولم أر من تعرض لذلك من المتشرعين، وهو أمر وراء عقولنا المشوبة بالأوهام" . 12/8 إلا أنه يثبت لهم هذا ويؤمن بما صح نقله منه، كما يظهر من قوله في موضع آخر عن طي المسافة: "وهو من أعظم خوارق العادات، وأنكر ثبوته للأولياء الحنفية، ومنهم ابن وهبان، قال:

ومن لولي قال طي مسافة يجوز جهول ثم بعض يكفر"

وقد استغرب الآلوسي صدور هذا القول من الحنفية مع قولهم إذا ولد لمغربي ولد من امرأته المشرقية مثلاً يلحق به وإن لم يلتقيا ظاهراً، قال: "والكتب ملأى من حكايات الثقات هذه الكرامة لكثير من الصالحين، وكأن مجهل قائلها بنى تجهيله على أن في ذلك قولاً بتداخل الجواهر" إلى أن قال: وأنت تعلم أن قطع المسافة الطويلة في الزمن القصير لا يتوقف على تداخل الجواهر لجواز أن يكون بالسرعة، كما قالوا في الإسراء فليثبت للأولياء على هذا النحو". على أن الآلوسي يرى أن الكرامات كالمعجزات مجهولة الكيفية، قال: "فنؤمن بما صح منها ونفوض كيفيته إلى من لا يعجزه شيء سبحانه وتعالى، ومثل طي المسافة ما يحكونه من نشر الزمان، وأنا مؤمن ولله تعالى الحمد بما يصح نقله من الأمرين، والمكَفِّر جهول، والمجَهِّلُ ليس برسول" روح المعاني 49/8

نقطة الكون

ويورد الآلوسي في كلامه على كسر الباء في البسملة عن بعض الصوفيين قولهم من باب الإشارة: "كسرت الباء في البسملة تعليماً للتوصل إلى الله تعالى والتعلق بأسمائه بكسر الجناب والخضوع وذل العبودية، فلا يتوصل إلى نوع من أنواع المعرفة إلا بنوع من أنواع الذل والكسر، كما أشار إلى ذلك سيدي عمر بن الفارض، قدس الله سره الفائض بقوله:

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ولو كنت لي من نقطة الباء خفضة رفعت إلى ما لم تنله بحيله

بحيث ترى أن لا ترى ما عددتـه وأن الذي أعددته غير عده

فإن الخفض يقابل الرفع، فمن خفضه النظر إلى ذل العبودية، رفعه القدر إلى مشاهد عز الربوبية، ولا ينال هذا الرفع بحيلة، بل هو بمحض الموهبة الإلهية الجليلة، ومن تنزل ليرتفع فتنزله معلول، وسعيه غير مقبول. انتهى.

ولا يكتفي الآلوسي بهذا، بل يعلق عليه بما يشبه كلام الصوفية وإشاراتهم، فيقول: وهو أمر مخصوص بباء البسملة لا يمكن أن يجري في باء الجر مطلقاً كما لا يخفى، وعندي في سر ذلك أن الباء هي المرتبة الثانية بالنسبة إلى الألف البسيطة المجردة المتقدمة على سائر المراتب، فهي إشارة إلى الوجود الحق، والباء إما إشارة إلى صفاته التي أظهرتها نقطة الكون، ولذلك لما قيل للعارف الشبلي: أنت الشبلي؟ قال: أنا النقطة تحت الباء[107]، وقال سيدي الشيخ الأكبر قدس سره:

الباء للعارف الشبلي معتبرُ وفي نقيطتها للقلب مدكرُ

سر العبودية العلياء مازجها لذاك ناب مناب الحق فاعتبروا

أليس يحذف من بسم حقيقته لأنه بدل منه فـذا وزرُ[108]

وقال الآلوسي: "نعم إنه سبحانه لم يترك عادته في افتتاح السور هنا بالكلية حيث افتتح هذه السورة بالباء، كما افتتح غيرها بها في ضمن البسملة، وإن كانت باء البسملة كلمة، وباء هذه

107 قول الشبلي: أنا النقطة تحت الباء يعد من شطحاته، وقد ذكر أهمها عبد الرحمن بدوي في: شطحات الصوفية، ص 41-44.

108 روح المعاني 54/1

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

السورة جزء من كلمة، وذلك لسرٍّ دقيق يعرفه أهلُه"[109]. ولم يذكر الآلوسي ذلك السرَّ في هذا الموضع، كما لم يذكره في كلامه على باء البسملة، حيث يقول:

"والصفات إما جمالية أو جلالية، وللأولى السبق كما يشير إليه حديث (سبقت رحمتي غضبي)[110]، وباء الجر إشارة إليها لأنها الواسطة في الإضافة والإفاضة، فناسبها الكسر وخفض الجناح ليتم الأمر ويظهر السر..." ثم يقول: "وما من سورة إلا افتتحها الرب بالرمز إلى حاله صلى الله عليه وسلم تعظيماً له وبشارة لمن ألقى السمع وهو شهيد، ولما كان الجلال في سورة براءة ظاهراً ترك الإشارة بالبسملة، وأتى بباء مفتوحة لتغير الحال وإرخاء الستر على عرائس الجمال، ولم يترك سبحانه وتعالى الرمز بالكلية إلى الحقيقة المحمدية، ولا يسعنا الإفصاح بأكثر من هذا في هذا الباب خوفاً من قال أرباب الحجاب، وخلفه سر جليل..."[111]

تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل

ومن المواضع التي أفاض الآلوسي فيها في النقل عن ابن عربي، وأنجد في الآخذ عنه فيها وأعرق، آية الإيلاج، حيث أغرق في ذكر ما بين الليل والنهار من التناكح المعنوي وكون كل منهما موالجاً ومولجاً فيه وما يترتب على ذلك من تولد الأشياء منهما معاً، قال: "فكل واحد منهما لصاحبه أصل وبعل، فكل ما تولد في النهار فأمه النهار وأبوه الليل، وكل ما تولد في الليل فأمه الليل وأبوه النهار" 112/2، وبعد أن أطال الآلوسي في ذكر أنواع الأيام وما يعرفه منها العارفون وورثة الأنبياء، على حد قوله، من أيام السلخ وأيام الإيلاج الشاني، قال: "وقد ذكر مولانا الشيخ الأكبر قدس سره الشأن في كل يوم في رسالته المسماة بالشأن الإلهي، ولعلي أذكر ذلك عند قوله

---

109 روح المعاني 236/5

87 رواه الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه، ورواه الديلمي في مسند الفردوس عن عمرو بن عنبسة في حديث أوله: كتاب كتبه الله قبل أن يخلق السماوات والأرض...

111 السابق 54/1

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

تعالى: "كل يوم هو في شأن" [الرحمن: 29]" ثم قال: وهذه الأيام أيضاً غير يوم المثل، وهو عمر الدنيا، ويوم الرب، ويوم المعارج، ويوم القمر، ويوم الشمس، ويوم زحل، ويوم الحمل. وكأني بالآلوسي رحمه الله شعر بما قد يخطر للبعض لدى قراءة كلامه هذا، فقال بعده: "وقد ذُكر كل ذلك في الفتوحات، وإنما تعرضنا لهذا المقدار، وإن كان الاستقصاء في بيان مشرب القوم ليس ليس بدعاً في هذا الكتاب، تعليماً لبعض طلبة العلم ما الليل والنهار، إذ قد ظنوا لجهلهم بسبب بحث جرى بنا الظنون، وفي هذا كفاية لمن ألقى السمع وهو شهيد، فحمداً لك اللهم على ما علّمت، ولك الشكر على ما أنعمت". روح 114/2

كلمة في عبارة الآلوسي في حق ابن عربي

إن المتتبع للمسائل التي وافق فيها الآلوسي ابن عربي يجدها في جملتها مما فيه مندوحة ومتسع، ولا تصادم فيه مع ثوابت العقيدة وقواطع الشريعة، بل مما يُزيل ما عند المتصوفة من مصادمة مع هذه الثوابت والقواطع، وكأني بالآلوسي يجري وراء أقوال ابن عربي مما هذه صفته جرياً، ويتقصاها تقصياً، ليدفع بها أقوالاً له أخرى جاءت بخلافها، ويَرُدَّ بها ما قد يَرِد على غيرها من تأويلات، ويستأنس بها في تقرير ما يريد الوصول إليه.

على أن الآلوسي بعد ذكر أقوال ابن عربي غالباً ما يتبعها بما يمكن أن يلوحَ منه عدم اقتناعه بما يقال، كقوله بعد سوق رأي ابن عربي في القرآن والفرقان، وأن القرآن يتضمن الفرقان، والفرقان لا يتضمن القرآن...: "ونسأل الله تعالى أن يلهمنا رشدنا ويزيل بعلمه جهلنا، إنه على ما يشاء قدير"[112].

112 روح المعاني 11/1

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وربما عدل الآلوسي عن ذكر كلام ابن عربي في مسألة من المسائل لاشتهاره، ولكنه يعلق بنفس هذا التعليق الذي في النفس منه شيء يشي بعدم تسليم الآلوسي لابن عربي فيه، وذلك في مثل كلامه على قوله تعالى: (وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس) [المائدة:116] إذ قال: "كلام الشيخ الأكبر قدس سره، وكلام الشيخ عبد الكريم الجيلي فيه شهير منتشر على ألسنة المخلصين والمنكرين فيما بيننا، والله تعالى أعلم بمراده، نسأل الله تعالى أن ينزل علينا موائد كرمه، ولا يقطع عنا عوائد نعمه، ويلطف بنا في كل مبدأ وختام، بحرمة نبينا عليه أفضل الصلاة والسلام"[113]. ومن ذلك قوله بعد أن ذكر قول ابن عربي في حرف الألف: "والله أعلم بحقيقة الحال"[114].

وقريب مما ذكرنا توقفه في صحة ما يأتي به ابن عربي من تأويلات بعيدة، كتفسيره قوله تعالى: (يُغشي الليلَ النهارَ يطلبه حثيثاً) [الأعراف:55] بالتناكح المعنوي الذي يرى ابن عربي أنه سارٍ في جميع الموجودات، إذ جعل غشيان الليلِ النهارَ كغشيان الرجلِ المرأة، ولا سيما أنه ذكر الإيلاج في آية أخرى، قال الآلوسي: "**وإن صح هذا** فما أصحَّ قولَهم: الليلةُ حُبلى، وما ألطفَه، وأمرُ الحثِّ عليه ظاهرٌ لمن ذاق عُسيلةَ النكاح"[115]. وأوضح من هذا قوله في بعض كلام ابن عربي: "**ولست ممن يفهمه**"[116].

مخالفات الآلوسي لابن عربي

113 روح المعاني 71/4

114 روح المعاني 337/4

115 روح المعاني 377/4

116 السابق 57/1

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

لئن جعل الآلوسي ابن عربي أحد مصادره التي أكثر من الرجوع إليها والأخذ عنها والاستشهاد بأقوالها والاعتداد بآرائها، فإننا من جهة أخرى نجده يختلف معه في مسائل، هي في مجملها أهم من تلك التي وافقه فيها، على ما سيأتي في السطور التالية:

الخضر والعلم اللدني

من المعلوم أن قصة الخضر من مهمات مرتكزات الصوفية، وعليها مدار كثير مما يقولون به من العلم اللدني والعلم الباطن والحقيقة[117]، والمتصفح للكتب التي ترجمت لهم، كطبقات الأولياء، وحلية الأولياء وغيرها يجدها تزخر بالقصص والحكايات التي تفيد لقاء كبار المتصوفة بالخضر وأخذهم عنه. وخلافاً لكثير من العلماء المحققين، يرى ابن عربي أن الخضر حي إلى يوم القيامة، وأنه رسول، وقد جاء هذا الخلاف مستوفى في روح المعاني، حيث نقل الآلوسي عن ابن عربي، في استعراضه لأدلة الفريقين وحججهم في مسألة حياة الخضر عليه السلام في هذا الزمان، ما ادّعاه ابن عربي من أنه اجتمع مع أكثر الأنبياء عليهم السلام، "لا سيما مع إدريس عليه السلام، فقد ذكر أنه اجتمع به مراراً وأخذ منه علماً كثيراً"، قال الآلوسي: "بل قد يجتمع الكامل منهم بمن لم يولد بعد كالمهدي، وقد ذكر الشيخ الأكبر اجتماعه معه"[118]. قال: "وهذا ظاهر عند من يقول: إن الأزل والأبد نقطة واحدة والفرق بينهما بالاعتبار عند المتجردين عن جلابيب أبدانهم، ولعل كثرة هذا الظهور والتشكل من خصوصيات الخضر عليه السلام". ومع أن الآلوسي يجعل هذا احتمالاً قائماً، إلا أنه يرى أنه لا يحص اليقين بأن الخضر المرئي موجود في الخارج كسائر الناس فيه[119].

117 للوقوف على قصة الخضر في الفكر الصوفي، انظر: الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة ص 205-228

118 روح المعاني 308/8

119 السابق، نفس الصفحة.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بيد أن الآلوسي رحمه الله، وإن كان أسهب في النقل عنه في فتوحاته في هذه المسألة، إلا أنه خالفه الرأي فيها، قال: "وعُلم منه القول برسالة الخضر عليه السلام، وهو قول **مرجوحٌ عند جمهور العلماء**، والقول بحياته وبقائه إلى يوم القيامة وكذا بقاء عيسى عليه السلام".

ولئن لم يكن الآلوسي حاداً في اعتراضه على ابن عربي في هذه المسألة، بل لم يُيئس القارئ من رأيه، وجعل له الخيار في الانتصار لأي الرأيين شاء، إلا أن عبارته لا تشي بأن رأي ابن عربي مرجوح عند جمهور العلماء فحسب، بل يلوح منها أنه لا يأخذ به إلا من لا اعتبار عنده للدليل، وهو من المقلدة الغافلين، ودونك عبارته في هذا المعنى إذ يقول: "ولينظر ما وجه قوله قدس سره بإبقاء عيسى عليه السلام في الأرض، وهو اليوم في السماء كإدريس عليه السلام، ثم إنك إن اعتبرت مثل هذه الأقوال وتلقيتها بالقبول لمجرد جلالة قائلها وحسن الظن فيه، فقل بحياة الخضر عليه السلام إلى يوم القيامة، وإن لم تعتبر ذلك وجعلت الدليل وجوداً وعدماً مداراً للقبول والرد، ولم تغرك جلالة القائل ... فاستفت قلبك بعد الوقوف على أدلة الطرفين وما لها وما عليها، ثم اعمل بما يفتيك[120].

فنظر نظرةً في النجوم

ويفيض الآلوسي في النقل عن ابن عربي في الفتوحات فيما يتعلق بأسرار البروج والفلك، ويوافقه في أن الإحاطة بالأسرار المودعة في الأجرام لا يبعد أن تحصل لبعض الخواص ذوي النفوس القدسية، لكن بطريق الكشف أو نحوه دون الاستدلال الفكري والأعمال الرصدية مثلاً، قال:

120 روح المعاني 310/8

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

"وهو الذي يقتضيه كلام الشيخ الأكبر قدس سره"[121]. ثم نقل ما قاله ابن عربي في الباب الثالث والسبعين من الفتوحات، وهو قوله: ومن الأولياء النقباء، وهم اثنا عشر نقيباً في كل زمان لا يزيدون ولا ينقصون على عدد البروج الاثني عشر، كل نقيب عالم بخاصية كل برج وبما أودع الله تعالى في مقامه من الأسرار والتأثيرات، وما يعطي للنزلاء فيه من الكواكب السيارة والثوابت، ثم قال: ومنهم النجباء، وهم ثمانية في كل زمان، إلى أن قال: ولهم القدم الراسخة في علم تسيير الكواكب من جهة الكشف والاطلاع، لا من جهة الطريقة المعلومة عند العلماء بهذا الشأن، والنقباء هم الذين حازوا علم الفلك التاسع، والنجباء حازوا علم الثمانية الأفلاك التي دونه، وهي كل فلك في كوكب، ويفهم من هذا القول بالتأثيرات وأنها مفاضة من البرج على النازل فيه من الكواكب"[122].

غير أن الآلوسي لا يبلغ مبلغ ابن عربي في هذا الباب، بل يتوقف دون ذلك، واصفاً كلام ابن عربي بأنه من جنس كلام المنجمين، فهو يقول بعد أن ينقل عن الشيخ كلامه في أكثر من موضع: "وله قدس سره كلام غير هذا أيضاً، وقد **سَرَحَ بنحو ما صرَّح به المنجمون** من اختلاف طبائع البروج، وأن كل ثلاثة منها على مرتبة واحدة في المزاج، وأنا لا أزيد على القول بأن للأجرام العلوية، كواكبها وأفلاكها أسراراً وحكماً وتأثيرات غير ذاتية، بل مفاضة عليها من جانب الحق والفياض المطلق جل شأنه وعظم سلطانه..."[123].

القرآن والفرقان وإيمان قوم نوح

121 السابق 114/12

122 السابق 114/12

123 114/12

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يرى ابن عربي أن محمداً صلى الله عليه وسلم جمع في دعوته بين التنزيه والتشبيه، وذلك، في نظره، يستفاد من قوله تعالى: (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) [الشورى:11]، قال: "قال الله تعالى: (ليس كمثله شيء) فنزه، "وهو السميع البصير" فشبه"، بل إنه يرى أن قوله تعالى: "ليس كمثله شيء" يجمع الأمرين في أمر واحد، أي التشبيه والتنزيه، قال: "فلو أن نوحاً يأتي بمثل هذه الآية لفظاً أجابوه"[124].

وقد نص ابن عربي على هذا في فص حكمة سبوحية في كلمة نوحية[125]، والمتأمل لهذا الفص يجد أن ابن عربي يلتمس "كل سبب ليجعل من الإسلام مذهباً في وحدة الوجود، وينسب إلى نبي الإسلام القول بهذه النظرية"[126]، فهو يستعمل الفرقان والقرآن بمعنى التفرقة والجمع، على نحو غير الذي يفهمه الصوفية عادة من مقامي التفرقة والجمع[127]، بل بمعنى أن الفرقان هو الدعوة إلى تنزيه الله تعالى دون تشبيهه، وأن القرآن هو الدعوة إلى الجمع بين التنزيه والتشبيه. فمن يدعو إلى تنزيه الله، كما فعل نوح، ولا يلتفت إلى التشبيه، كان فرقانياً، ومن يدعو إلى تنزيهه وتشبيهه، كما فعل محمد، في نظره، كان قرآنياً. وفي هذا الفص أيضاً يوظف ابن عربي نصوصاً أخرى لتقرير مذهب وحدة الوجود ووحدة الأديان، نحو توظيفه قوله تعالى: "وقضى ربُّك ألا تعبدوا إلا إياه"، إذ المعروف عند المفسرين أن القضاء هنا بمعنى الأمر أو التوصية، قال مجاهد: "وقضى" يعني: وصى. ويؤكد هذا ما جاء في قراءة أبي بن كعب وابن مسعود والضحاك بن مزاحم: "ووصى ربك

---

124 فصوص الحكم 70

125 فصوص الحكم، 68/1

126 فصوص الحكم 37/2-38

116 الجمع عند الصوفية معناه أن ما يكون كسباً للعبد، من إقامة العبودية وما يليق بأحوال البشرية فهوفرق. وما يكون من قبل الحق من إبداء معان وإسداء لطف وإحسان فهو جمع. ومنه يستنبطون أن إثبات الخلق من باب الجمع وإثبات الحق من نعت الجمع، ويرون أنه لا بد للعبد من الجمع والفرق، إذ إن من لا تفرقة له لا عبودية له، ومن لا جمع له لا معرفة له. انظر: الرسالة القشيرية 100

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أن لا تعبدوا إلا إياه"[128]. ولكن ابن عربي لا يفهم من "قضى" ما عليه عامة المفسرين، بل يرى أن معنى "قضى": حَكَم، أي قدر أزلاً أنكم لن تعبدوا إلا إياه، ولذلك فهو يرى أنه "ما عُبِد غيرُ الله في كل معبود"[129]، وأن قوم نوح لو تركوا آلهتهم وداً وسواعاً ويغوث ويعوق ونسراً، لجهلوا من الحق على قدر ما تركوا من هؤلاء، لأن "للحق في كل معبود وجهاً يعرفه به من يعرفه ويجهله من يجهله"[130]. على أن ابن عربي يمضي في تأويل آيات سورة نوح على نحو عجيب غريب، موظفاً ما أوتي من قدرة تأويلية هائلة لم يجاره فيها أحد من فلاسفة عصره، تذكرنا من وجه بتأويلات أصحاب الفرق الباطنية. وما ذاك إلا ليؤكد فكرته ويدعم نظريته في أن قوم نوح لم يجانبوا الصواب في عدم استجابتهم لنوح عليه السلام[131].

وعليه فهو يرى أن نوحاً لم يدعُ قومه على وجه يحرك لديهم داعية الإيمان له، ولذلك فهم مؤمنون ناجون. وهنا نجد الآلوسي يخالف عادته في الاعتذار عن ابن عربي، والتماس التأويلات لما يجيء به من أقوال يخالف فيها ما عليه جمهور أهل السنة والجماعة، فيقول: "ومعظم آيات هذه السورة الكريمة وغيرها نصٌّ في أن القوم كفرة هالكون يوم القيامة، فالحكم بنجاتهم كما يقتضيه **كلام الشيخ الأكبر قُدِّس سرُّه في فصوصه مما يُبرأ إلى الله تعالى منه**، كزعم أن نوحاً عليه السلام لم يدعُهم على وجه يقتضي إيمانهم، مع قوله سبحانه: (الله أعلمُ حيثُ يجعلُ رسالتَه) [الأنعام: 124][132].

128 تفسير القرآن العظيم 50/3، وانظر: روح المعاني 53/8

129 فصوص الحكم 72/1، وانظر تعليقات المحقق في الجزء الثاني ص 39-40

130 السابق

131 للوقوف على هذا العجب، انظر تعليقات المحقق في الجزء الثاني ص 40.

132 روح المعاني 90/15

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

على أن الآلوسي يستغل تفسيره الإشاري لينتقد تفسير ابن عربي لقوله تعالى: (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه)، وذلك أنه ذكر قول الوجودية من الصوفية في تفسيره، وهو ما مضى من كلام ابن عربي، ثم قفّى على ذلك بأن مما ينسبونه إلى زين العابدين رضي الله عنه ويزعمون أنه مشير إلى مدعاهم، قوله:

إني لأكتمُ من علمي جواهرَه ... كيلا يرى الحقَّ ذو جهلٍ فيُفتتنا

وقد تقدم في هذا أبو حسن ... إلى الحسين وأوصى قبله الحسنا

فرُبّ جوهرِ علمٍ لو أبوحُ به ... لقيل لي أنتَ ممّن يعبدُ الوثنا

ولاستحلَّ رجالٌ مسلمون دمي ... يرَونَ أقبحَ ما يأتونه حسنا

إذ قالوا: إنه رضي الله تعالى عنه عنى بهذا الجوهر، الذي لو باح به لقيل له: "أنت ممن يعبد الوثن"، عِلْمَ الوحدة، إذ منه يُعلم أن الوثن وكذا غيره مَظهر له جل وعلا، وليس في الدار غيره ديّار. قال الآلوسي: "...ومثله كثير للشيخ الأكبر قدس سره، ولغيره عرباً وعجماً، وهو عفا الله تعالى عنه قد **فتح باباً في هذا المطلب لا يُسدّ** إلى أن يأتي أمر الله عزّ وجلّ، وكأنه أوصى إليه بأن يبوح وينثر هاتيك الجواهر بين الأصاغر والأكابر، كما أوصى إلى الحسنين بأن يكتما من ذلك ما عَلِما"[133].

والحق أنني وقفت طويلاً أمام قوله هذا، إذ لاح لي منه تهكّمٌ بموقف ابن عربي، ولكن الآلوسي يحيرك بموقفه القُلَّب، ذلك أنه يستأنف بما قد يشي بأنه يحاول التماس العذر له فيما قال، فيقول: "وفي بعض كتبه قدِّس سره ما هو صريح في أنه مأمور، فإن صح ذلك فهو معذور، وأنا

133 روح المعاني 118/8

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

لا أرى عذراً لمن يقفو أثره في المقال مع مباينته له في الحال، فإن هذا المطلب أجل من أن يحصل لغريق الشهوات وأسير المألوفات ورهين العادات، ولله تعالى در من قال:

تقول نساء الحي تطمع أن ترى محاسن ليلى مت بداء المطامع
وكيف ترى ليلى بعين ترى بها سواها وما طهّرْتَها بالمدامع
وتطمع منها بالحديث وقد جرى حديث سواها في خروق المسامع[134]

ونحو مما قدمنا انتقاد الآلوسي ما ذهب إليه ابن عربي من أن العالم كل لحظة في خلق جديد، ذلك أن ابن عربي يرى أن الجوهر وكذا العرض لا يبقى زمانين، كما أن العرض عند الأشعري كذلك، قال الآلوسي: "وهذا عند الشيخ قدس سره مبني على أن الجواهر والأعراض كلها شؤونه تعالى عما يقوله الظالمون علواً كبيراً، وهو سبحانه كل يوم أي وقت في شأن، وأكثر الناس ينكرون على الأشعري قوله بتجدد الأعراض، **والشيخ قدس سره زاد في الشطرنج جملاً، ولا يكاد يدرك ما يقوله بالدليل، بل هو موقوف على الكشف والشهود، وقد اغتر كثير من الناس بظاهر كلامه فاعتقدوه من غير تدبر فضلوا وأضلوا**... 128/7

إيمان فرعون

يرى الآلوسي أن إيمان فرعون من باب إيمان اليأس الذي لا ينفع صاحبه، وأن ذلك هو ما عليه الأئمة الفحول، قال: "وقد صرحوا أيضاً بأن إيمان البأس واليأس غير مقبول، ولا شك أن إيمان المخذول كان من ذلك القبيل، وإنكاره مكابرة، وقد حكي إجماع الأئمة المجتهدين على عدم القبول، ومستندهم فيه الكتاب والسنة"[135]. وعليه فالاستفهام في قوله تعالى (آلأن) إنما هو

134 السابق، نفس الصفحة.

135 روح المعاني 175/6-176

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

للإنكار والتوبيخ، قال: "والظرف متعلق بمحذوف يُقدّر مؤخراً، أي آلأن تؤمن حين يئست من الحياة وأيقنت بالممات، وقُدِّرَ مؤخراً ليتوجه الإنكار والتوبيخ إلى تأخير الإيمان إلى حد يمتنع قبوله فيه"[136]، أما قوله تعالى: (وقد عصيت قبل) فيرى أنه إنما جيء به لتشديد التوبيخ والتقريع على تأخير الإيمان إلى هذا الآن، ببيان أنه لم يكن تأخيره لما عسى يُعَدُّ عذراً، بل كان ذلك على طريقةِ الرد والاستعصاء والإفساد، وأما قوله تعالى: (فاليوم ننجيك ببدنك) فتهكم به وتخييب له وحسم لأطماعه بالمرة[137]. قال: "ولهذه الآية وأشباهها وقع الإجماعُ على كفر المخذول وعدم قبول إيمانه... فهو من أهل النار المخلدين فيها بلا ريب"[138].

ونقل الآلوسي أن هذا هو قول الشيخ الأكبر قدس سره في أول كتابه الفتوحات، حيث جعل أهل النار الذين لا يخرجون منها أربع طوائف، وجعل الطائفة الأولى منها المتكبرين على الله تعالى كفرعون وأشباهه ممن ادعى الربوبية لنفسه ونفاها عن الله تعالى[139]. بيد أنه ذكر لابن عربي رأياً آخر في إيمان فرعون، صرح به في موضع آخر من الفتوحات، كما صرح به في غيره من كتبه. وهذا الذي ذكره الآلوسي نجده أيضاً عند ابن عربي لدى كلامه على فص حكمة علوية في كلمة موسوية، ومقتضاه أن فرعون مات على الإيمان، بل أن موسى عليه السلام كان قرة عين له، كما قالت له امرأته، "بالإيمان الذي أعطاه الله عند الغرق، فقبضه طاهراً مطهراً ليس فيه شيء من الخبث، لأنه قبضه عند إيمانه قبل أن يكتسب شيئاً من الآثام، والإسلام يجب ما قبله..."[140].

---

136 روح المعاني 171/6

137 السابق، نفس الصفحة.

138 السابق 173

139 روح المعاني 173/6 وانظر: الفتوحات المكية 377/1

140 فصوص الحكم 201

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وهنا يجرد الآلوسي لهذا الزعم الباطل سيفَه، ويشن عليه حملته، حتى إنه لا يبقي له ولا يذر، ولكنه يلتزم في ذلك كله منتهى الحذر، فيقول: "وقد ذهب قدس سره في كتابه فصوص الحكم إلى نحو ما ذهب إليه أخيراً في كتابه الفتوحات، وقد اعترض عليه بذلك غير واحد، **وهو عندي ليس بأعظم من قوله قدس سره بإيمان قوم نوح عليه السلام** وكثير من أضرابهم، ونجاتهم يوم القيامة، وقد نص على ذلك في الفصوص"، بل رأى أن "العجب أن لم يكثر معترضوه في ذلك كثرتهم في القول بإيمان فرعون". قال: "وقد انتصر له بعض الناس، ومنهم في المشهور: الجلال الدوّاني[141]، وله رسالة في ذلك أتى فيها بما لا يعد شيئاً عند أصاغر الطلبة"[142]. على أن الأهم في كلام الآلوسي في هذا السياق هو قوله: "وفي فتاوى ابن حجر أن بعض فقهائنا **كفّر من ذهب إلى إيمان فرعون**"[143].

ولم يقف الآلوسي هنا في انتقاده ابن عربي في هذا القول، بل نص على أن ما ذكره ابن عربي في توجيه آية (حتى إذا أدركه الغرق) "**خارجٌ عن ذوق الكلام العربي، وتَجَشُّمُ تكلُّفٍ لا معنى له**". قال: "ويُرشدك إلى بعض ذلك أنه قدس سره حمل قوله تعالى: (آلآن وقد عصيت) على العتب والبُشرى، مع أنه لا يخفى أنه لو صح إيمانه وإسلامه لكان الأنسب بمقام الفضل الذي إليه طمح نظر الشيخ أن يقال له: الآن نقبلك ونكرمك ..."

---

130 يكمل الآلوسي بقوله: "لكن في تاريخ حلب للفاضل الحلبي كما قال مولانا الشهاب أنها ليست للجلال، وإنما هي لرجل يسمى محمد بن هلال النحوي، وقد ردها القزويني وشنع عليه وقال: إنما مثله مثل رجل خامل الذكر لما قدم مكة بال في زمزم ليشتهر بين الناس، وفي المثل: خالف تعرف، ويؤيد كونها ليست للجلال أنه شافعي المذهب، كما يشهد لذلك حاشيته على الأنوار". انظر: روح المعاني 175/6

142 روح المعاني 175/6

143 روح المعاني 175/6

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

والآلوسي الذي دأبه التماس التأويلات لكلام الصوفية، ولا سيما كلام الشيخ الأكبر، نراه لا يعمد إلى هذا المنهج في هذا الموضع، بل يرى أن الذي يجب أن يعول عليه فيه ما ذهب إليه أولاً وهو خلود فرعون في النار، و"أنه لو لم يكن له قُدِّس سره إلا القول بقبول إيمانه **لا يلزمنا اتباعه في ذلك والأخذ به، لمخالفته ما دل عليه الكتاب والسنة**، وشهدت به أئمة الصحابة والتابعين فمن بعدهم من المجتهدين، **وجلالة قائله لا توجب القبول**"[144].

ومما يستوقفك هنا أن الآلوسي يختم هذا المبحث بقوله في حق ابن عربي: "وإكفار المنكرين له فيه ضلال وأي ضلال، وظلم عظيم موجب للنكال، فإن له قدس سره في ذلك مستنداً كغيره المقابل له وإن اختلفا في القوة والضعف"، ثم يرى أن الوقوف على حقيقة هذه المسألة ليس مما كلفنا به، فلا يضر الجهل بها في الدين. وواضح من هذا الجزء من كلامه أنه لا يرغب في الخوض في معركة احتجاج واستدلال مع المتعصبين لابن عربي، ولا مع المنكرين عليه.

موقف الآلوسي من الكشف

على أن الآلوسي يستغل هذه المناسبة ليناقش قضية الكشف وحجيته، فبعد أن رأى أن الشيخ كأنه إنما قال قوله الثاني من طريق النظر، وأن النظر يخطئ ويصيب، فإنه لم يلزم نفسه بتقليده

---

133 روح المعاني 177/6، ويرى الشيخ محمد رشيد رضا أن قول ابن عربي بإيمان فرعون هو من باب استهواء الشياطين لبعض الصوفية الذين كانوا يغيبون عن حسهم وعقلهم في رياضاتهم، وإيحائها إليهم ما يظنون أنه حقائق كوشفوا بها من الله مباشرة، أو من تلقين أرواح شيوخهم المعتقدين، قال: "فكل ما خالف الشريعة من كشفهم فهو من الشيطان، ومنه ما يحكيه الشعراني عن السيد البدوي أنه كان يجمع أرواح الميتين من البلاد المختلفة ويسوقهم إلى حضور مولده الذي هو مجمع البدع والفسق والخرافات والضلال، ومنه ما يحكيه الشيخ محيي الدين بن عربي من كشفه الذي تخيل به أن فرعون موسى كان من أكابر العارفين بالله وأوليائه المقربين عنده". انظر: السيد رشيد رضا وإخاء أربعين سنة، للأمير شكيب أرسلان، ص 64. والنسخة التي بين يدي غفل من اسم الناشر وتاريخ النشر.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ولو كان قال ذلك من طريق الكشف أيضاً، قال: "بل قد مر عن الإمام الرباني قدس سره أنه لا يجوز تقليد الكشف، وصرح غير واحد بأنه ليس بحجة على الغير[145] كالإلهام ولا يثبت به حكم شرعي"[146]. ولما كان لابن عربي في هذه المسألة قولان متناقضان، فإن الآلوسي يرى أنه لو كان كلا القولين من طريق الكشف، لزم انقسام الكشف إلى صواب وخطأ، ثم ناقش رأي من ذهب في تأويل كلام ابن عربي بقبول إيمان فرعون وفنده تفنيداً، لما فيه من التكلف الظاهر الكلف، قال: "ولذلك لم يرتكبه أجلة أصحابه، بل أبقَوا كلامه على ظاهره، وهو الظاهر"[147].

ويؤكد الآلوسي موقفه هذا في تفسيره لقوله تعالى: (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) [الذاريات:56]، فبعد أن ذكر قول مجاهد في قوله (ليعبدون) وأن معناه: ليعرفون، قال: وقد جاء "كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لأعرف"، وهذا الخبر بهذا اللفظ، كما يقول الآلوسي، ذكره سعد الدين الفرغاني في منتهى المدارك، وذكر ابن عربي غيره في الفتوحات، قال: "وتعقبه الحفاظ، فقال ابن تيمية: إنه ليس من كلام النبي صلى الله عليه وسلم، ولا يعرف له سند صحيح ولا ضعيف" ومع ذلك فالصوفية يروونه، قال: "ومن يرويه من الصوفية معترِف بعدم ثبوته نقلاً، لكن يقول: إنه ثابت كشفاً، وقد نص على ذلك الشيخ الأكبر قدس سره".

134 أجاز مجمع اللغة العربية بالقاهرة دخول "أل" على "غير"، وإن كان منعه سيبويه والحريري وأبو حيان، وحجته في ذلك أن القياس لا يمنعه، وأن "أل" الداخلة على "غير" ليست "أل" التعريف، بل هي المعاقبة للإضافة، نحو قوله تعالى: فإن الجنة هي المأوى، أي مأواه، لأنها لما شابهت المعرفة بإضافتها إلى المعرفة جاز أن يدخلها ما يعاقب الإضافة وهو الألف واللام، وأن بعض العلماء أثبت تعرفها بالإضافة في مواضع مخصوصة، وإذا جاز تعرفها بالإضافة فلا مانع من تعرفها بالألف واللام في مواضع مخصوصة كذلك، كأن يحمل الغير على الضد فيصح بالحمل على النظير، وهو شائع في كلام العرب. على أن من القدامى من جوز هذا الاستعمال أيضاً، ومنهم ملك النحاة كما في تهذيب الأسماء واللغات والفيومي وابن الحنبلي والشهاب الخفاجي.

146 روح المعاني 177/6، وانظر في حجية الكشف: روح المعاني 166/6

147 روح المعاني 177/6

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وقد قفى الآلوسي على هذا بقوله: "**والتصحيح الكشفي شِنْشِنَةٌ لهم**"[148]، وغير خاف ما يلوح فيه من تهكم.

ومصداق ذلك ما نقف عليه في الفتوحات وغيره من كتب ابن عربي في بيان طريقته في التأليف، ذلك أنه يعزو جميع ما يجري به قلمه من علوم وتأويلات إلى الكشف، ولا سيما فيما يصعب تعليله من أمور، حتى إنه ليكرر ذلك في الموضع الواحد مراراً، كما صنع لدى كلامه في فتوحاته على أسرار الحروف، الذي أنقل لك منه طرفاً، وإن طال، لتستبين منهج الرجل في التأليف، يقول: "فلنتكلم على (ألم) [البقرة:1] البقرة التي هي أول سورة مبهمة في القرآن كلاماً مختصراً من طريق الأسرار، وربما ألحق بذلك الآيات التي تليها، وإن كان ذلك ليس من الباب، ولكن فعلته عن أمر ربي الذي عهدته، فلا أتكلم إلا عن طريق الإذن، كما أني سأقف عندما يُحَدُّ لي، فإن تأليفنا هذا وغيره لا يجري مجرى التواليف، ولا نجري نحن فيه مجرى المؤلفين..." إلى أن يقول بعد ذكر المؤلفين ممن ليسوا من أهل الكشف: "ونحن في تواليفنا لسنا كذلك، إنما هي قلوبٌ عاكفةٌ على باب الحضرة الإلهية، مراقبةٌ لما ينفتحُ له الباب، فقيرةٌ خاليةٌ من كل علم، لو سُئلت في ذلك المقام عن شيء، ما سَمِعَتْ، لفقدها إحساسَها، فمهما برز لها من وراء ذلك الستر أمرٌ ما، بادرت لامتثاله وألّفته على حسب ما يُحَدُّ لها في الأمر، ... "[149]. وفي السياق نفسه يقول معللاً ذهابه إلى أن الثمانية هي حقيقة البِضع: "فإن قلت: إن البضع مجهول في اللسان، فإنه من واحد إلى تسعة، فمن أين قطعت بالثمانية عليه؟ فإن شئت قلت لك: من طريق الكشف

148 روح المعاني 22/14، والشنشنة: الطبيعة والخليقة والسجية، وفي المثل: شنشنة أعرفها من أخزم.

149 الفتوحات، 102/1

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وصلت إليه، فهو الطريق الذي عليه أسلك، والركن الذي إليه أستند في علومي كلها"[150]. وقال أيضاً: "ولنا في علم العدد من طريق الكشف أسرار عجيبة من طريق ما يقتضيه طبعه".

ولئن كان الآلوسي لا ينكر الكشف أصالة، إلا أنك رأيت أنه يردُّ منه ما خالف منه ثوابت النصوص، كما أنه كثير الاعتراض على إظهار ما يطلع عليه بعض الصوفية من طريق الكشف، فهو يرى في ذلك فتنة لكثير من الناس ومدعاة لضلالهم وداعياً للإنكار على من يأتون به، قال: "**وبالجملة أمر الشيخ الأكبر وأضرابه، قدس الله تعالى أسرارهم، فيما قالوا ودوّنوا، عندي مشكل، لا سيما أمر الشيخ فإنه أتى بالداهية الدهياء** مع جلالة قدره التي لا تنكر، ولذا ترى كثيراً من الناس ينكرون عليه ويكرون"[151].

ونقف في غرائب الاغتراب على نص للآلوسي آخر يفهم منه توقفُه في قبول ما يأتي ابن عربي من طريق الكشف، بل شكُّه في صدقه، وذلك قوله بعد أن قرر جلالة الشيخ الأكبر قولاً وعملاً كما مضى آنفاً: "لكن أنا لا أعلم ما التزمه من سر التدوين، مع ظهور أنه سبب قوي لضلال كثير من ضعفاء المسلمين، وقياسُه على متشابه الكتاب والسنة قياسٌ لا يرتضيه إذا أمعن النظر ذو فطنة، وكذا لا أعلم سرَّ تأخير النبي صلى الله عليه وسلم تبليغ ما في الفصوص، عن زمان تبليغ ما أوحي إليه عليه الصلاة والسلام من النصوص، إلى أن يأتي الشيخ الأكبر بعد نحو ستماية سنة بعد الهجرة، فيناولها إياه في المنام ويقول له اخرج بها إلى الناس، فخرج بها غيرَ مغير منها مقدار ذرة!"[152].

---

150 السابق.

151 روح المعاني 291/8

141 غرائب الاغتراب 145، والعبارة الأخيرة إشارة لما ذكره ابن عربي من سبب تأليفه فصوص الحكم. وانظر: ابن عربي حياته ومذهبه، 87 وما بعدها.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ونفي الآلوسي أن يكون مرادُه من هذا الكلام نفيَ السر في نفس الأمر، وإنما نفيه علمه هو به، مع تسليم أن له سراً هو معلوم لدى صحب ابن عربي، لا يُزيل ما يلوح من إنكاره هذا الضرب من التأليف، والتصريح بما افتتن به كثير من الناس وضلوا بسببه ضلالاً بعيداً.

ومما يزيد موقف الآلوسي هذا وضوحاً أنه من المقرر عند الأصوليين أن حكم الرؤى والأحلام في الشرع أنه لا ينبني عليها حكم ولا يثبت بها شيء من الأشياء، حتى صرح العلماء بأن من يرى النبي صلى الله عليه وسلم في الرؤيا ويتلقى منه أمراً أو نهياً لا يجوز له في اليقظة أن يعتمد على ذلك، لعدم الثقة بضبطه لما يرى وانتفاء اختلاط الأمر عليه فيه، ولأن الله تعالى لم يتوفَّ نبيه إليه إلا بعد أن أتم الدين على يديه، ولم تبق حاجة إلى بيان آخر فيه، (إلا أن يؤتي الله عبداً فهماً في القرآن) كما ورد. وذلك أننا "لو جعلنا الكشف حجة شرعية لما كانت دلائل الشرع محصورة فيما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم عن ربه وتلقاه عنه أصحابه الذين هم خير هذه الأمة، وهم لم يقولوا بهذا الكشف ولم يحتجوا به"[153]، ولكن عوام المسلمين وجهالهم كجهال سائر الملل يرون أن الرؤى والأحلام من أركان العلم والعرفان، لا سيما إذا كان موضوعها الخرافات والأوهام[154].

نماذج أخرى من مخالفات الآلوسي لابن عربي

الرحمن على العرش استوى

153 مجلة المنار 349/10، وفيها بحث مستوفى في العمل بالكشف وغيره من الخوارق، فليرجع الراغب في الاستزادة إليه.

154 مجلة المنار 184/7-185

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وفي قضية التأويل، وهي من مهمات قضايا العقيدة الإسلامية، بسط الآلوسي كلام ابن عربي في الباب الثاني من فتوحاته، ثم علق عليه بقوله: "**وكلام الشيخ الأكبر قدس سره في هذا المقام مضطرب**، كما يشهد بذلك ما سمعت نقله عنه أولاً، مع ما ذكره في الفصل الثاني من الباب الثاني من الفتوحات"[155]. ثم أخذ في سرد قوله هذا الذي يناقض قوله الأول.

أما في صفة العرش، فقد نقل الآلوسي عن ابن عربي قوله فيه إنه ذو أركان أربعة ووجوه أربعة، هي قوائمه الأصلية، وإن بين كل قائمتين قوائم عددها معلوم عنده ولا يبينها...ثم قال: "ويفهم كلامه أن قوائمه ليست بالمعنى الذي يتبادر إلى الذهن، وصرح بأنه أحد حملته، وأنه أنزل عند أفضل القوائم وهي خزانة الرحمة... إلى أن قال: وأطال الكلام في هذا الباب وأتى فيه بالعجب العجاب، **وليس له في أكثر ما ذكره فيه مستند نعلمه من كتاب الله تعالى أو سنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ومنه ما لا يجوز لنا أن نقول بظاهره**..."[156].

كرويّة الأرض

ومما خالف فيه الآلوسي ابن عربي كروية الأرض، ذلك أن ابن عربي له فيها قول بسطه الآلوسي ثم قال: "والقلب يميل إلى الكرية والله لا يستحي من الحق، وما ذهب إليه الشيخ الأكبر قدس سره أمر شهودي وفيه الموافق والمخالف لما ذهب إليه معظم المحدثين، وأكثر علماء الدين"[157].

---

155 روح المعاني 475/8

156 السابق، 476/8

157 روح المعاني 367/2

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

قيل لها ادخلي الصرح

ونحو من ذلك ما جاء في قوله تعالى (قيل لها ادخلي الصرح) [النمل: 44] إذ قال ابن عربي ما حاصله إنه أراد أن ينبهها بالفعل على أنها صدقت في قولها في العرش: (كأنه هو) حيث إنه انعدم في سبأ ووجد مثله بين يديه، فجعل لها صرحاً غاية في اللطف والصفاء كأنه ماء صاف وليس به، قال الآلوسي: "**ولا أظن الأمر كما قال**، والله تعالى أعلم"[158].

ومثل ذلك أو قريب منه توقفه في شأن ما يصرح به ابن عربي، كما نرى في كلامه على علة حذف الألف من "باسم" في الخط، إذ ذكر اختلاف العلماء في ذلك، وأن الكثير من عللهم غير مطردة، ثم خلص إلى أن الرأي فيه "إبداءُ سرٍّ ذوقي لذلك" لا يكاد يعرفه أرباب الرسوم، على حد تعبيره، قال: "وقد حرره الشيخ الأكبر قدس سره في الفتوحات بما لا مزيد عليه، **ولست ممن يفهمه**"[159]، ثم بين القريب من فهمه، وما يرى أنه الوجه.

ومنه كذلك وصفه كلامه بأنه ليس من العربية، وذلك في قوله تعالى: (وإن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة) [الإسراء:58] إذ وصف الآلوسي كلاماً لابن عربي في ذلك بأنه "**أشبه شيء بالهندية ولا يكاد يعد من العربية**"[160]، ولا يخفى ما فيه من إنكار.

158 روح المعاني 203/10

159 السابق 57/1

160 روح المعاني 97/8

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ومنه أيضاً قول ابن عربي بأن قبل آدم بأربعين ألف سنة آدم غيره، وقد نفى الآلوسي أن يكون ما قالوه صحيحاً في عالمنا هذا، وحمله على عالم المثال، قال: "**وأما القول بظواهر هذه الأخبار فما لا يراه أهل السنة والجماعة، بل قد صرح زين العرب بكفر من يعتقد التعدد**"[161].

يضاف إلى ذلك ما للآلوسي من كلام يلوح منه الاستنكار على الشيخ ما يأتي به ككلامه في المعراج، إذ قال الآلوسي: "وقد ذكر الشيخ الأكبر قدس سره في معراجه ما يحير الألباب ويقضى منه العجب العجاب، ولم يستبعد ذلك منه بناء على أنه ختم الولاية المحمدية **عندهم**". قال: "ومن عجائب ما اتفق في زماننا أن رجلاً يدعى بعبد السلام نائب القاضي في بغداد، وكان جسوراً على الحكم بالباطل، شرع في ترجمة معراج الشيخ الاكبر قُدس سره بالتركية مع شرح بعض مغلقاته، ولم يكن من خبايا هاتيك الزوايا، فقبل أن يتم مرامه ابتلي والعياذ بالله تعالى بآكلة في فمه، فأكلته إلى أذنيه، فمات وعرج بروحه إلى حيث شاء الله تعالى، نسأل الله سبحانه العفو والعافية في الدين والدنيا والآخرة"[162].

وجملة القول في موقف الآلوسي فيما جاء عن ابن عربي مما لا سند له من الكتاب والسنة والآثار أنه مردود، بل إن هو إلا محض خرافات، ودونك ما نختم به ذلك من عبارة الآلوسي في تفسيره لقوله تعالى: (ويخلق ما لا تعلمون) [النحل:8] إذ يقول: "ومما لا نعلمه أرض السمسمة التي ذكر عنها الشيخ الأكبر قُدس سره ما ذكر، وجابرصا وجابلقا حسبما ذكر غير واحد، **وإن**

161 روح المعاني 392/2، ولم أقف على ترجمة زين العرب المذكور.

162 روح المعاني 48/8-49

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

زعمت ذلك من الخرافات ...فاقنع بما جاء في الآثار، ولا يثنيك عنه شبه الفلاسفة إذا صح سنده، فإنها كسراب بقيعة"[163].

ملاحظات على مخالفات الآلوسي لابن عربي

وأنت إذا تأملت هذه المسائل التي خالف فيها الآلوسي ابنَ عربي رأيتها تدور على ما ليس للتأويل فيه مندوحة مما ثبت نقله واستفاض عند أهل السنة والجماعة القول به، ولذلك رأيتَ الآلوسي، وهو صاحب الأقوال الآنفة من التسليم للصوفية، يرد هذه الأقوال ولا يكلف نفسه تأويلها، وهو الذي لا يألو في تأويل أقوال القوم جهداً ولا يدخر وسعاً، حتى وجد تأويلاً لمثل قول ابن عربي في فتوحاته: "فإذا وقع الجدار، وانهدم الصور، وامتزجت الأنهار، والتقى البحران، وعدم البرزخ، **صار العذاب نعيماً، وجهنم جنة، ولا عذاب ولا عقاب، إلا نعيم وأمان، بمشاهدة العيان**. إلخ"، فبعد أن ينقل هذا الكلام يقول: "وهذا وأمثاله محمول على معنى صحيح يعرفه أهل الذوق، ولا ينافي ما وردت به القواطع"[164]، وإن كان يرى أن "الأخذ بظواهر هذه العبارات النافية للخلود في العذاب، وتأويل النصوص الدالة على الخلود في النار، بأن يقال الخلود فيها لا يستلزم الخلود في العذاب، لجواز التنعم فيها وانقلاب العذاب عذوبة، **مما يجرُّ إلى نفي الأحكام الشرعية وتعطيل النبوات وفتح باب لا يسدّ**"[165].

ومع ذلك فقد كان الآلوسي مصاولاً بارعاً في الكر والفر والضرب والتلقي، فتراه تارة يخالف ابن عربي في مسائل إلا أنه يجعل رأيه فيها احتمالاً قائماً، ويترك الباب فيها مفتوحاً للقارئ ليقرر أي

163 روح المعاني 346/7

164 روح المعاني 145/1 وانظر: التفسير والمفسرون: 375/2

165 روح المعاني 145/1

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الأقوال يختار لنفسه، بعد أن يريه القول الذي يوافقه الدليل وتسنده الحجة. وطوراً تجده يخالفه ولكنه يحاول أن يلتمس له العذر فيما يذهب إليه، وإن كان لا يخفي إنكاره، وأكثر ما يكون ذلك بأن يعزو ما يأتي به إلى الكشف. وثالثة تُلفيه يخالفه فيها مخالفة مطلقة ويبرأ إلى الله مما يأتي به من غير مواربة ولا إعذار، كما رأيت في موقفه من كلامه على إيمان قوم نوح.

وأنت لو قرنت بين هذا وبين ما مر مما قيل في الكشف، لرأيت أنه لا داعي لإعنات النفس وكد الخاطر بتأويل ما صدر عن ابن عربي مما يخالف الشريعة والأخبار الثابتة وليس له وجه في العربية ولو بعيداً، بل لثبت لديك أنه لا سبيل إلى ذلك إلا إنكار المعلوم من الدين بالضرورة. ومن هنا قال الذهبي صاحب التفسير والمفسرون في معرض كلامه على أفهام الصوفية للقرآن وأنه قد يقبل منها ما يدخل تحت مفهوم اللفظ العربي القرآني ويكون له شاهد شرعي يؤيده: "أما أن تكون هذه الأفهام خارجة عن مدلول اللفظ القرآني، وليس لها من الشرع ما يؤيدها، فذلك ما لا يمكن أن نقبله على أنه تفسير للآية وبيان لمراد الله تعالى"، ثم قال مقفياً بعد أن بين عذره فيما قدم من قول، وهو أنه لم يسلك مسالك القوم ولم يذق ذوقهم، ولم يعرف اصطلاحهم: "ولعلي إذا سلكت هذا الطريق، وانكشفت لي من أستار الغيب ما انكشف لهم، أو على الأقل فهمت لغة القوم ووقفت على مصطلحاتهم، لعلي إذا حصل لي شيء من هذا تبدل رأيي وتغير حكمي، فسلمت لهم كل ما يقولون به، مهما كان بعيداً أو غريباً"[166]. وأنا وإن كنت أُسيغ موقف الذهبي هذا، فإني لا أزال أقول: إن سلوكاً يوصل المرء إلى القول بمثل هذا الكلام المخالف للشريعة لا خير فيه ولا نفع يرتجى منه، وتحضرني في هذا المقام كلمة نقلها ابن الجوزي عن بعض السلف،

166 التفسير والمفسرون 374/2

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يمكن تنزيلها على ما نحن بصدده، وهي قوله: "من ادعى بُغضَ الدنيا فهو عندي كذاب إلى أن يثبت صدقُه، فإذا ثبت صدقه فهو مجنون"[167].

تأويل شطحات الصوفية

مسألة تأويل شطحات الصوفية ليست بالمسألة الهينة، إذ ليس لما يمكن تأويله حد معروف وصفات بادية، ولذلك فقد وقع في كلام العلماء اختلاف كبير في هذا الصدد، فبينما نجد عدداً منهم يمنع التأويل مطلقاً، ويرى أنه لا يؤول إلا كلام الأنبياء لعصمتهم، نجد آخرين ومنهم الآلوسي يؤول بعض هذه الشطحات، ويتوقف في بعض، كما مر آنفاً.

ولم يكن الآلوسي بدعاً في موقفه هذا، فهذا ابن قيم الجوزية، وهو من أئمة المتمسكين بمذهب السلف، يتأول للصوفية شطحاتهم، وذلك في كلامه في مبحث الفناء في كتابه الشهير مدارج السالكين، وإني ناقل منه هذه القطعة وإن طالت لأهميتها البالغة في تجلية موقفه من مثل هذه الشطحات وشرطه في قبولها، يقول: "وأما الفناء عن شهود السوى فهو الذي يشير إليه أكثر الصوفية المتأخرين ويعدونه غاية، وهو الذي بنى عليه أبو إسماعيل الأنصاري كتابه وجعله الدرجة الثالثة في كل باب من أبوابه. وليس مرادهم فناء وجود ما سوى الله في الخارج، بل فناؤه عن شهودهم وحسهم، فحقيقته غيبة أحدهم عن سوى مشهوده، بل غيبته أيضاً عن شهوده ونفسه، لأنه يغيب بمعبوده عن عبادته، وبمذكوره عن ذكره، وبموجوده عن وجوده، وبمحبوبه عن حبه، وبمشهوده عن شهوده.

وقد يسمى حال مثل هذا سكراً واصطلاماً ومحواً وجمعاً. وقد يفرقون بين معاني هذه الأسماء، وقد يغلب شهود القلب بمحبوبه ومذكوره حتى يغيب به ويفنى به، فيظن أنه اتحد به وامتزج، بل يظن

---

167 صيد الخاطر 157

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أنه هو نفسه، كما يحكى أن رجلاً ألقى محبوبُه نفسَه في الماء فألقى المحب نفسه وراءه، فقال له: ما الذي أوقعك في الماء؟ فقال: غبت بك عني فظننت أنك أني!

وهذا إذا عاد إليه عقله يعلم أنه كان غالطاً في ذلك، وأن الحقائق متميزة في ذاتها: فالرب رب، والعبد عبد، والخالق بائن عن المخلوقات، ليس في مخلوقاته شيء من ذاته، ولا في ذاته شيء من مخلوقاته. ولكن في حال السكر والمحو والاصطلام والفناء قد يغيب عن هذا التمييز، وفي هذه الحال قد يقول صاحبها ما يحكى عن أبي يزيد أنه قال: "سبحاني" أو "ما في الجبة إلا الله" ونحو ذلك من الكلمات التي لو صدرت عن قائلها وعقله معه لكان كافراً.

ولكن مع سقوط التمييز والشعور قد يرتفع عنه قلم المؤاخذة.

على أن ابن القيم يمضي ليبين حال من هذه حاله، فيقول

أما الشيخ محمد بن عبد الوهاب الذي استفاض عنه إنكاره للتصوف جملة، فحقيقة أمره أنه لا ينكر منه إلا ما خالف الشرع وتنكب طريق السلف الصالح، ولكنه مع ذلك لا يقول بتأويل شطحات الصوفية، ونراه يؤكد هذه الحقيقة بقوله: "ولا ننكر الطريقة الصوفية وتنزيه الباطل من رذائل المعاصي المتعلقة بالقلب والجوارح مهما استقام صاحبها على القانون الشرعي والمنهج القويم المرعي، إلا أننا لا نتكلف له تأويلاً في كلامه ولا في أفعاله، ولا نعول ونستعين ونستنصر ونتوكل في جميع أمورنا إلا على الله تعالى".

خاتمة

يمكننا الخلوص مما تقدم إلى أن:

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

1- الآلوسي وإن كان سلفي الاعتقاد ملتزماً بمنهج السلف الصالح في ثنايا تفسيره، إلا أنه يُجِلُّ الصوفية ويحسن الظن فيهم، ويسلم لهم بالاطلاع من طريق الكشف على علوم لا يتسنى الاطلاع عليها لغيرهم ممن لم يسلك مسلكهم ويتذوق مشربهم. كما أنه يدعو إلى إجلالهم والتسليم لهم فيما يأتون به ما دام لا يخالف ظاهر الشريعة، وحاديه في ذلك أن عقولهم وقلوبهم خالية مما شاب قلوب غيرهم من الآفات والأوهام. ويمكننا أن نقول مطمئنين إن الآلوسي بذلك قد أعطى منحى جديداً للمدرسة السلفية يختلف عن منحى مدرسة الشيخ محمد ابن عبد الوهاب في الشكل والمظهر، وإن اتفق معه في اللب والجوهر.

2- الآلوسي ينتصر لعلم الشريعة، ويقدم الأحكام الشرعية والنصوص الثابتة على كل فهم، وهو، وإن خصص مساحة ليست باليسيرة من كتابه الضخم للتفسير الإشاري وجعل هذا الجزء من تفسيره معرضاً لأقوال الصوفية وآرائهم وشطحاتهم، إلا أنه لم يقبل هذه الأقوال على عواهنها، بل وجدناه يناقشها ويقلب القول فيها، بل لقد ذهب إلى ما هو وراء ذلك، إذ جعل صفحات تفسيره الإشاري منبراً لرد ما خالف روح الشريعة من آرائهم، ولا سيما شيخ الصوفية الأكبر وكبريتهم الأحمر، إذ فند كثيراً مما جاء به مما يخالف ظاهره الشريعة، ولم يجد بداً من حمله على ظاهره وعدم تأويله.

3- الآلوسي كان حذراً جداً في اعتراضه على ابن عربي، وتجنب في ذلك الحدة والصرامة التي رأيناها لدى المدرسة الوهابية، ولعل طبيعة عصر الآلوسي والمنزلة التي بلغها ابن عربي في ذلك العصر هما أفضل ما يفسر هذا الموقف، فقد يبلغ به الحذر إلى أن يُشَبِّهُه من وجه بالرسول صلى الله عليه وسلم، كقوله بعد أن وجّه له سهام انتقاده في قضية

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

إيمان فرعون: "ومَنْ عَلِمَ أن للنبي عليه الصلاة والسلام اجتهاداً جاء الوحيُ بخلافه لم يستعظم ما قيل في الشيخ وإن كان هو هو"[168].

4- الآلوسي مثل نموذجاً جديداً للسلفية القائمة على المزاوجة بين معتقدات السلف عليهم الرحمة والرضوان، وبين ما هو مشروع من التصوف وتزكية النفوس، تذكرنا من وجه بسلفية ابن قيم الجوزية رحمه الله، كما أنه حاول التقريب بين الفقهاء والمتصوفة، والثورة على الفصام النكد الذي وقع بينهم في العصور المتأخرة. وقد اعتمد في ذلك على إفراغ التصوف مما علق به من أبعاد مصادمة لما ثبت من الشريعة الإسلامية والعقيدة الصحيحة، وقد سار في سبيل ذلك في ثلاث طرق:

أولها: استبعاد تفسيرات ابن عربي المخالفة للثابت من النصوص.

والثاني: الالتفاف على هذه التفسيرات بتأويلها على وجوه تخرج بها من مصادمة قواطع الأدلة.

والثالث: منع القول بظاهر كثير مما جاء عن الصوفية مما يخالف ظاهره محكمات النصوص، وقواطع الأدلة.

ثبت المراجع

1- ابن تيمية، شيخ الإسلام أحمد. **مجموع الفتاوى**. جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم. طبعة وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد بالمملكة العربية السعودية. 1995.

168 روح المعاني 177/6

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

2- ابن الجوزي، جمال الدين. **صيد الخاطر**. تحقيق عبد القادر أحمد عطا. دار الكتب العلمية – بيروت. 1999

3- ابن عاشور، محمد الطاهر. تفسير التحرير والتنوير. مؤسسة التاريخ العربي – بيروت. الطبعة الأولى 2000.

4- ابن عربي، محيي الدين. (1) **فصوص الحكم**. تعليق أبو العلا عفيفي. دار الكتاب العربي. بيروت. 2002.

(2) **الفتوحات المكية**. دار إحياء التراث التراث العربي – بيروت. الطبعة الأولى، بلا تاريخ.

5- ابن كثير، . **تفسير القرآن العظيم**. قدم له: عبد القادر الأرناؤوط. مكتبة دار الفيحاء، دمشق، ومكتبة دار السلام، الرياض. الطبعة الأولى، 1994.

6- الآلوسي، أبو الفضل شهاب شهاب الدين السيد محمود البغدادي. (1) **روح المعاني**. ضبطه وصححه علي عبد الباري عطية. دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى 1994.

(2) **غرائب الاغتراب ونزهة الألباب**. مطبعة الشابندر – بغداد. 1327 هـ.

7- البخاري، عبد الله. **جهود أبي الثناء الآلوسي في الرد على الرافضة**. دار ابن عفان – القاهرة. الطبعة الأولى، 1999.

8- بدوي، عبد الرحمن. (**1**) **شطحات الصوفية**. وكالة المطبوعات، الكويت. الطبعة الثالثة 1978.

(**2**) **شخصيات قلقة في الإسلام**. وكالة المطبوعات، الكويت. الطبعة الثالثة 1978.

9- بلاثيوس، أسين. ابن عربي: حياته ومذهبه. ترجمه عن الإسبانية عبد الرحمن بدوي. وكالة المطبوعات، الكويت ودار القلم، بيروت. 1979.

10- البوطي، محمد سعيد رمضان. (1) **السلفية**. دار الفكر – دمشق. الطبعة الأولى. 1988.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

(2) هذا والدي. دار الفكر المعاصر-بيروت، دار الفكر – دمشق. الطبعة الثالثة 1995.

11- الذهبي، محمد حسين. **التفسير والمفسرون**. 1976.

12- رضا، محمد رشيد. (1) **مجلة المنار**. دار الجيل بيروت.

(2) تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده. دار الفضيلة – القاهرة. الطبعة الثانية، 2006.

13- شرف، محمد جلال. **دراسات في التصوف الإسلامي: شخصيات ومذاهب**. دار النهضة العربية، بيروت. 1980.

14- الشيبي، كامل مصطفى. **الجانب الروحي (الزهد والتصوف) عند ابن رشد**. مقالة منشورة ضمن كتاب **ابن رشد فيلسوف الشرق والغرب في الذكرى المئوية الثامنة لوفاته**. راجعه وأعده للنشر مقداد عرفة منسية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ومنشورات المجمع الثقافي، تونس، 1999.

15- عبد الحميد، محسن. **الآلوسي مفسراً**. مطبعة المعارف، بغداد. الطبعة الأولى 1969.

16- عبد الرحمن عبد الخالق. **الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة**. مكتبة دار الفيحاء، دمشق، ومكتبة دار السلام، الرياض. الطبعة الأولى 1994.

17- العزاوي، عباس. **ذكرى أبي الثناء الألوسي**. شركة التجارة والطباعة ببغداد، 1377هـ.

18- علم الدين، سليمان سليم. **التصوف الإسلامي**. نوفل، بيروت. الطبعة الأولى 1999.

19- القشيري، أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن. **الرسالة القشيرية**. دار الكتب العلمية، بيروت. طبعة 2001.

20- كيفيتش، علي شود. **الولاية والنبوة عند الشيخ الأكبر محيي الدين بن العربي**. ترجمه من الفرنسية وقدم له د. أحمد الطيب. دار الشروق، القاهرة. الطبعة الأولى 2004.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

21- النبهاني، يوسف بن إسماعيل. **جامع كرامات الأولياء**. ضبطه وصححه الشيخ عبد الوارث علي. دار الكتب العلمية، بيروت. الطبعة الأولى 1996.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com